
الثقافة الجنسية
الثمن ١٠ قروش
الأستاذ شكرى جرجس
عضو المجمع العالمى للطب النفسانى
أخصائى فى الأمراض النفسية
والعلاج بالتحليل النفسى

بحث علمي نفساني

الثقافة الجنسية

الأستاذ شكري جرجس

عضو المجمع العالمي في الطب النفساني

اخصائي في الأمراض النفسية

والعلاج بالتحليل النفسي

مطبعة الشمس بشارع كلوت بك لصاحبها زكي رزق الله



المؤلف

اهداء

الى كل طبيب ، والى كل مربى ، والى كل شاب ، والى كل فتاة اقدم كتابى هذا راجيا من الجميع ان لا ينتقدوه قبل دراسته جيداً ، لما يحويه من نظريات حديثة فى الطب النفسانى بخصوص « العاده السريه » وتجاريبى الشخصية اثناء علاجى الكثيرين من الشباب «بالتحليل النفسى» والتى تخالف الاراء المعروفه لدى معظم الناس وانعشم ان نشر هذه التعاليم الجديدة تكون سببا فى اراحة النفوس المعذبة التي تقاسى الامراض النفسية فتهديهم الى معرفة طريق السعاده الحقه .

فان نجحت فى هذا ، فقد قمت ببعض الواجب على نحو شباب امتى العزيزه

الفصل الأول

حاجتنا الى الثقافة في المسائل الجنسية

وضرورة الخبرة الصحيحة بها

أدرك الانسان منذ نشأته أن المخلوقات كلها على اختلاف أنواعها - من نبات وحيوان وانسان خلقت من « جنسين » يلعب كل منهما دوره الخاص فى ميدان الانتاج : أحدهما الأنثى - وهو الجانب الذى يتلقى التلقيح والآخر جنس الذكر - وهو أداة وعلة التلقيح ، وكل منهما يكمل الآخر تكميلا لا بد منه لحفظ النوع

وليس فى نيتى أن اتناول فى كتابى هذا تاريخ قيام الفوارق الكائنة بين هذين الجنسين ، ولا احصاء المنافع والمساوىء التى أحاطت بالحياة الكونية لذلك ، ولا كيف نشأت هذه الحالة التى نلمس آثارها فى حياة الكائنات - فان كثيراً من المؤلفات عالجت هذه المواضيع وغيرها مما يمس هذا السياج الأساسي الذى يتوسط الجنسين غير ان لى ملاحظات عامة لا بأس من ايرادها

استطاع الانسان منذ قرون بعيدة أن يرى بالعين المجردة

خواص ومميزات كل جنس من الجنسين فى دائرة النبات والحيوان.
ولعلنا نذكر ارسطاطاليس زعيم الكتاب فى مميزات النبات والحيوان.
لكن «الميكروسكوب» أطلع الانسان الحديث على فوارق على
جانب كبير من الدقة والأهمية لم يكن يستطيع الوصول اليها بغيره.
ولا تزال الفوارق الكيمائية العضوية الكائنة فى باطن الهرمونات
التناسلية موضوع درس متواصل.

ومهما يكن من أمر فمن البديهى انه لولا ما أطلق عليه كلمة
«الجنس» ، والفوارق التى ينطوى عليها ، ما كانت « الحياة »
ولذلك يجب علينا أن ندرس مظاهر وخواص «الجنس» كيمائياً
وبيولوجياً وسيكولوجياً . وقد أسفرت هذه الدراسة عن الرغبة
فى كشف المظاهر الجنسية بين الطبقات العليا من الحيوانات التى
كشف سلوكها الجنسى (التناسلى) عن كثير من عناصر الجنسية
الكامنة فى المخلوقات العاقلة. والواقع ان ما لاحظه الانسان فى طبقة
القرود زاده اهتماما بهذا البحث، نظراً لما أدركه فى تلك الحيوانات
من حركات لا تزال آثارها فى حياة الكائنات العاقلة. وقد حدا به
هذا الادراك الجزئى الى متابعة دراسة الباعث الجنسى دراسة
بيولوجية وسيكولوجية منذ بضعة آلاف من السنين . غير أنه
منذ عهد قريب فقط أمكنه تحديد معنى ذلك الباعث وبحثه بحثاً
منظماً . واهتدى الى فهمه فهماً دقيقاً

ولن أحاول شرح النواحي المتشعبة لهذه المباحث ، بل

سأكتفى بايضاح مجموعة من المظاهر الناشئة عن الباعث الجنسى كما نرى بعضاً من آثارها في سلوك الانسان . وغايتى من ذلك أن أبدد ما علق بالأذهان من سوء فهمها ، وان أظهرها للقارىء فى دقة واخلاص .

لخص الشاعر المعروف « شيللر» العناصر التى تتألف منها الحياة فى عبارته المأثورة «الجوع والحب» وانه لتلخيص حكيم وايدحكمته أنه مامن مظهر أو تصرف أو حركة تبدو فى الحياة إلا وتدخل تحت هذين العاملين الرئيسيين . وقدسبق أن حدثنا عنهما علماء الحياه ـ مع اختلاف في التعبير. فعرفوا العامل الأول (الجوع) بأنه غريزة حفظ النفس . والعامل الثانى (أى الحب) بأنه غريزة حفظ الجنس ولكن الانسان يخفى منذالقدم أهم مظاهر الحياة ويقصيها عن دائرة شعوره ويضع فى مكانها أمور الحياة التافهة .ومن هنا تنبت الحكمة المأثورة ان حفظ النفس هو ناموس الطبيعة الأول على أن تفنيد هذه العقيدة يقودنا الى فكرة (الدجاجة والبيضة) التى نفهم منها ان فناء البيضة (أى موتها) هو علة حياة «الكتكوت» وتنطوى هذه الفكرة على حقيقتين هامتين الأولى أن الفرد يضحى غالباً فى سبيل منفعة المجموع والثانية هى أن الخلايا التناسلية شيء خالد ، أما الجسد ، أى الجزء الذى نطلق عليه « غريزة حفظ النفس » فهو فان لا خلود له

وهنالك كما قلنا بواعث أخرى فى الحياة علاوة على تلك البواعث الناشئة عن التناسل . على أنه ليس بينها ما هو عرضة للكبت والكتمان مثل البواعث الجنسية التى كثرت وقست من

أجلها النواهى وأحاطت بها دائرة التحريم فحالت دون بحثها وفهمها وناهيك بالاضرار التى لحقت النشء من وراء هذا الكبت فكم من أسرة تحول بكل طريقة دون ذكر أية معلومات عن الموضوعات التى تمس هذه الناحية من الحياه أمام الفتيان والفتيات فى دور المراهقة، ويتطرفون فى قمع شعورهم حتى لا يبدو منهم مايشير اليها، ويحسبون بذلك انهم يحسنون الى أولادهم وبناتهم بينما هم يجنون عليهم ولا يعلمون أن طريقتهم هذه تولد فيهم الرياء والجبن، فضلا عن ان كبت هذه القوة الكامنة فى النفس لا تزيدها إلا ثورة وهياجا. فلا يغرنكم أيها الاباء تلك المسحة الهادئة الظاهرة على وجوه أبنائكم - مسحة الرضى والتسليم بما تلقونه عليهم من الروادع والنواهى - ورفقاً بهم، ورحمة بنفوسهم التى يعقبها النضال الداخلى والتى تتعطش بطبيعتها الى حب الاستطلاع - فلا ضير عليكم أن تعلموهم شيئاً معقولا يفهمون منه الحقيقة حتى تهدأ نفوسهم وتطمئن - فليس أبلغ ضرراً من المبالغة فى التكتم والتحريم، وترك الأولاد وشأنهم يتخبطون ويتلمسون معرفة الحقائق من سوانا - وهل من غضاضة أن نحيطهم علما بالمسائل الجنسية الصحيحة فى السن المبكرة حتى نحول دون وقوعهم فى أقسى الأمراض ؟ ومن أين لنا أن نضيق عليهم ونحول دون هدايتهم فى الوقت الذى نرى فيه الكتب الوضيعة والصحف الماجنة والصور المكشوفة والملابس الفضفاضة - وكلها مغريات ناطقة تستفز الحواس التناسلية وتجسم الفوارق القائمة بين الرجل والمرأة -

ألسنا نحسب هذا نقصاً واجراماً فى حق أبنائنا ؟ ألا نتفق على أن الثقافة الجنسية لها أهميتها فى التعليم كأية مادة يتلقنها التلميذ فى حياته الدراسية إن لم تكن أهمها ؟ قد لانجد الجو الملائم ولا الأباء العقلاء ولا المدربين الاكفاء الذين يمكن أن نوكل اليهم مهمة تثقيف الأبناء وأنارتهم من هـذه الناحية . فهنالك أفراد كثيرون على درجة من الثقافة في كثير من النواحى ماعدا ناحية الحياة التناسلية التى يحبسونها ويضيقون عليها بواسـطة القمع الشعورى والـكبت اللاشعورى ، وغيرها من المقاومات. وكم من والد أسقط المنزل من حسابه فلاتهمه مسألة تربية أولاده، وكم من أم انصرفت الى حياتها الاجتماعية دون العناية باولادها . وكم من شبان برموا بحياتهم نتيجة لتأثير عوامل الخوف والخجل بسبب معلوماتهم الناقصة عن المسائل الجنسية ، مما ترك فى نفوسهم الاحساس بالحقارة وصغر الذات ، وولد فيهم التـذمر وتأنيب الضمير القاتل. كل ذلك نتيجة أفكار خاطئة غير ناضجة من ناحية المسائل الجنسية لذلك يجب على الاباء أن يحسنوا التصرف مع أولادهم وأن يعلموهم الناحية الأدبية للحياة الجنسية . فان الثقافة الصحيحة فى هذا الموضـوع لهـا أثر كبير فى تكييف البواعث النفسية فى الطفل ولتكن كل علاقة بينهم قائمة على الصراحة المطلقة والمعلومات الصحيحة وان لا يتهاونوا فى قيادة بواعثهم النفسية فى مجرى صحى صحيح ، وأن يعلموهم عن

وجود الأمومة وانها فكرة التوالد والتناسل تمهيداً لما يمكن أن يقدم لهم ، وأن يجعلوا من هذه الفكرة مثلا أعلى للبواعث الجنسية ، وان يضربوا لهم مثلا بالتناسل فى الحيوان . كل هذا يغرس فيهم حب احترام الحياة الجنسية ويهذب ميولهم ويشعرهم بقدرة الخالق العظيم . وكما قال الرئيس إليوت : علموا بنيكم أن الولادة والتربية عملان مقدسان جميلان ، فتحولوا بينهم وبين عوامل الخجل والتهيب ومحاولة التخلص من المشاكل الجنسية فى دور الشباب ، وتضمنوا لهم صحة سليمة ونفساً مطمئنة وتخلقوا فيهم شخصية قوية مستقلة .

أما الضغط والتضييق عليهم فيحد من هذه القوه المعنوية ويضعف مداها ويخلق مكانها التواكل والاعتماد على الغير . ولو حاولنا أن نكتم عنهم هذه المسائل، وأرغمناهم على اخفاء مشاعرهم ازاءها ، فسرعان ماتجدهم في مرحلة البلوغ تحت رحمة مجموعة من الامراض العصبية المؤلمة التى تظهر في التحليل النفسى انها راجعة الى خوف قديم من حادث تافه يمت الى التناسليات ، أو نراهم تحت سطوة عذاب الشعور بالذنب شعوراً متواصلا يستنفد نشاطهم ويسبب لهم متاعب جمة ، أو نجدهم ذوى حدة تبلغ درجة العناد الشديد — هذا فضلا عن كثرة من الامراض البدنية . فاذا لم يكن للثقافة الجنسية فضل استئصال « الشهوة » من النفس ، فيكفى فضلها فى ضبط النفس والحيلولة دون الامراض النفسية . فى حين أن الجهل بهذه المسائل لايترك سوى الاحساس بالشقاء

وتعطيل نمو الشمائل النفسية السامية .

ان الثقافة المعقولة ، عن يد مدرب خبير بالطريقة العلمية مع مراعاة الآداب العامة ، ضرورة لاغنى عنها وعلى الأخص فى دور النمو والتكامل الجنسى ، اذ تظهر الشباب الجميل فى ثوب قشيب . ولكن اذا وصل الشبان الي هذا الدور ، ووجهة نظرهم الى هذه المسائل مغضبة مرعبة ، فهيهات لهم متى كبروا أن يغيروا هذا الاتجاه .

على أن هنالك اشتراطات وحدوداً تجب مراعاتها في تلقين هذه الحقائق للشباب : منها ضرورة مجانبة الشرح المطول ، والابتعاد عن الآمثلة والحوادث الشخصية ، والحذر من انشاء البواعث المضطربة كالخوف والقلق ، ومسايرة حالة كل طفل : فان الطفل العصبي أكثر حاجة الى الثقافة الجنسية من الطفل السليم . ولايفوتنا ان اللطف والرقة يؤثران فى أخلاق الطفل أكثر من الرقابة وتقييد الحرية .

ولكى تثمر الثقافة ثمرها المرجو ، يجب الا يغيب عن البال ان لكل طفل مقداراً من الشخصية وقدراً من الذكاء ، كما أن الأطفال ليسو على درجة واحدة من حيث إمكان انشاء الصفات الممدوحة فيهم ، كضبط النفس والشعور بالمسؤولية .

وأخيراً لنذكر ان الثقافة المقصودة لاتعنى حشو الدماغ بتفصيل احدى العقائد أو شرح احدى النظريات العلمية ، بل تكوين الاخلاق الحميدة ، واشباع الاهتمام السفورى فى الفرد

بطريقة اجتماعية معقولة ، والأخذ بيده فى فهم وتقدير مشاكل الحياة الداخلية . ولا ننسى ان المعلومات التى يستقيها الطفل خلسة تضره أبلغ الضرر كما تضره المعلومات غير اللائقة اذ تجعله يحقد على بعض الاشخاص وتولد الخوف فى نفسه وتشعره بحقارة قدره .

وأتقدم الآن بالقارىء الى الكلام عن الدور الذى يقوم به كل من الطبيب والمعلم والأب فى تثقيف الطفل من هذه الناحية .

(١) دور الطبيب :

ان الطبيب الذى أعنيه هو « الطبيب النفسى » لأن هذه المواضيع لا تتصل بالطب البدنى قدر اتصالها بالنفس فالطبيب النفسى الذى يود أن يساهم بنصيب فى الثقافة الجنسية ، يجب أن تكون له مبدئياً دراية صحيحة بنمو الناحية التناسلية النفسية فى الطفل .

قلت ان معالجة هذه المواضيع تقع فى نطاق « الطب النفسى » وذلك لأن العقاقير او نظم الأكل الخاصة أو وسائل الطب الطبيعى لا تفلح كثيراً فى معالجة أية حالة نفسية تناسلية . ومع ذلك لا يزال كثير من الاطباء يتمسكون بهذه العلاجات الناقصة الغير مجدية ـ والي عهد قريب جداً لم تكن دراسة العناصر الجنسية شائعة شيوعها فى وقتنا الحاضر ، ولو اننا لا نزال نرى بعض الأطباء النفسيين يتمسكون بالفن بطريقة رسمية جافة دون استخدامه بطريقة حية فعالة . مما اضطر المرضى الى الاستعانة

باطباء غير مثقفين فى « الطب النفسى » يقدمون اليهم نصائح ناقصة لا تشفى المرض ولا تريح المريض .

وأول ما يتصرف اليه « جهد الطبيب النفسى » هو دراسة مشاكل الحياة التناسلية النفسية ، لأن العوامل النفسية اكثر اهمية من العوامل الجسمية . فضلاعن أن الدراسة السيكولوجية الصحيحة تتضمن بالضرورة دراسة العوامل الأدبية والأخلاقية

على أن الاطباء الجسديين ليسوا كلهم فى درجة واحدة من حيث العناية بدراسة هذه الناحية من « النفس » فترى جانبا منهم يتمسك بالآراء البالية ، فيتخلصون من كل حديث يتصل بالمسائل الجنسية وترى فريقاً آخر لا تزيد مجموعة معلوماته فى هذه المسائل عن معلومات الشخص العادى . وبالجملة فان اكثر الاطباء لا يريدون أن يتخطوا الحدود البالية والآراء غير الناضجة ، لذلك لا يصلحون لارشاد الشباب . فاذا أرغموا على التحدث عن المسائل الجنسية فانهم يتحدثون على مضض ، واذا عرضت لهم حالة نفسية تناسلية يعجزون عن معالجتها لجهلهم الحقائق الجوهرية الخاصة بالحياة التناسلية النفسية .

فاذا شاء الطبيب أن يأخذ بيد الشباب في مشاكلهم ، حق عليه أن يعلم حقائق الحياة التناسلية النفسية علما صحيحاً تاماً . فيتسنى له أن يهدى الشاب المتحير إذ يثبت له أن ما يقاسيه من مظاهر تلك الحياة ، يقاسيه غيره من الشبان : وعندئذ يكون الطبيب قد وضع أصبعه على دقائق تلك الحياة وأسرارها ، فيتقدم خطوة جبارة فى طريق العلاج . وسيتضح له ان الرغبات المكبوتة التى لم تجد

طريقها للظهور ـ لا الرغبات الظاهرة ـ هى مرجع وعلة الامراض العصبية والنفسية التى تعذب المريض . وقد عنيت بتفصيل دراسة هذه الناحية فى كتابى هذا ، لكننى أقصد ان ابين مقدماً الواجب الاجتماعى والطبى المعلق فى عنق الطبيب النفسى والذى يضطره لدراسة الحالات الشعورية فيتوفر على دراسة تكوين الشخصية حتى يتسنى له أن يأخذ بيد المريض فى طريق الاخلاق السامية

وسيرى الطبيب الاخصائى فى « الطب النفسى » ان كثيرين من المرضي لا يرضون ان يقتنعوا بأن عوارض الامراض العصبية التى تعذبهم ترجع الى علل تناسلية . ومثل هؤلاء المرضى يجب أن يعاملوا بلطف وحذر ، مما يجب أن يسير عليه آباء المرضى اذا ارادوا تهذيبهم فى المسائل الجنسية ، فلا يؤذى شعورهم ولا يخلق فى نفوسهم روح العداء :

هذا وأن تعليم الشاب حقائق الحياة التناسلية النفسية وهو على عتبة البلوغ ذو أثر لا ينكر . ومع اختلاف وجهات النظر من حيث الكلام عن الاعضاء التناسلية فان الصراحة المعقولة أفضل من التكتم المغلوط . وقد لاحظت أن بعض الكتاب الاوربيين والامريكين يحبذون ذكر معلومات عامة عن هذه الاعضاء من الوجهة التشريحية والفسيولوجية ـ وفي رأيي أن هذا تطرف لامبرر له . كما قد لاحظت ان كثيراً من الآباء يحولون دون ذكر أية معلومات عامة فى حدود الاتزان ـ لا سيما مع البنات ـ وهذا تطرف لامبرر له أيضاً ـ لكننى أصرح بأن الجهل المطبق يؤذى الشباب فيجعل الفتاة بعد زواجها عصبية المزاج حادة الطبع . وحتى قبل

الزواج متى عاشت فى جو التكتم هذا ، فانها متى أدركها «الحيض» لأول مرة ترتاع وتظنه أمراً قبيحاً تحاول اخفاء أمره .

فواجب الطبيب اذن ان يعلم الشباب هذه الحقائق بطريقة سهلة وبغير تكلف .

(٢) دور المعلم :

لوحظ كثيراً أن ممارسة العطف واللين أفعل فى الشاب من المعلومات الطبية الضعيفة المجردة من الرفق كما أن التهديد ليس من ورائه سوى الخوف الدائم والجبن القاتل .

فلكى يتسنى للمعلم أن يستأصل من الشاب احدى العادات التى تعطل نمو حياته التناسلية ، فحذار من إشعار المريض بحقارته ومن ايجاد شعور الخوف والاضطراب فى نفسه . وليكن الغرض الأول فهم مشاكله فيها مقروناً بالرفق ، ولا بأس حينئذ من ممارسة الوسائط الأدبية والدينية ، كالمحبة والرحمة ، لمعرفة ميول الشاب واتجاهات حياته . ولا شك أن دراسة حياة الطفولة التناسلية دراسة صحيحه معوان للمعلم فى سبيل معالجة هذه المشاكل ، لا سيما وانه عرضة لمواجهتها اكثر من الطبيب الاخصائي .

(٣) دور الأب :

ان الدور الذى يقوم به الآباء له خطورته ونتائجه البارزة فى المنزل ، حيث يشرف الآباء علي تربية الطفل ، يجب أن نعوده وننشئه على العادات المحمودة ، والظهور بمظهر الصحة البدنية الموفورة . ومتى كبر تهون عليه مواجهة مشاكل الشباب بالصراحة

المعقولة ، ذاكرين انه يميل فى هذه الرحلة الى مظاهر القوة والنفوذ وحب السيطره الاجتماعية ، كما يتوقع من أبوية الحب والعطف .

فهو اذن دور انشائى خطير ، تلزمه المعدات الضرورية . فلكى يتسنى للآباء ان يعطوا ابناءهم قدراً من الثقافة الجنسية يجب ان يكون لهم إلمام بمادئها ، أو على الأقل يجب أن يكونوا لديهم فكرة سليمة ، على انهم ليسوا طبعاً على درجة واحدة من الاستعداد للقيام بهذا الدور ، فكثير منهم يجهل حقيقة البحوث الجنسية التى تحرك الشباب ، فالآب يتنصل من الحديث من كل ما له صلة بالحياة التناسلية ، والأم لا تحب أن تقتنع بوجود هذه البواعث فى ابنتها .

لذلك يتحتم عليهم أن يدركوا حقيقه العلاقه البنويه القائمه بينهم وبين اطفالهم ، وأن يربوا فيهم الخصال الحميدة ويعملوا على توجيههم وجهه اجتماعيه ساميه . وفى سبيل ذلك عليهم أن يتعرفوا هويه كل طفل ، فاذا لوحظ على أحدهم مثلا نزعه الى حب ذاته فحسب ، يجب الأخذ بيده للتغلب على هذه الروح والا فانه متى كبر يصبح شخصاً عصبياً حاد المزاج .

ولا ينس الآباء ان الصراحه ضروريه فى هذه المسائل ، بشرط التعقل وعدم المغالاة كما يجب أن يحرصوا على الظهور أمام أولادهم بمظهر الرزانة ، لأن الخفة والاستهانه يتركان فيهم عدم الاستقرار لا سيما ونحن نعلم انهم متصفون بطبيعتهم الطائشة . وليحذر الآباء طريقة العنف والانتهار التى لا أثر لها فى اصلاح اخطاء الماضى .

ولكي يقوم الآباء بدورهم في الوقت المبكر وبالطريقة المشروعة يتحتم عليهم أن يعرفوا شيئا عن الميول والتخيلات التناسليه التى تثور فى أولادهم فى مرحلة المراهقة ، فضلا عن معرفة علامات هذه المرحلة . فان تلك الميول والتخيلات التناسلية هى باكورة وطلائع المرحله السيكولوجية لباعث الحب . أما اغفال أمرها بدعوى انعدامها فهو الجهل المطبق الذى يؤذى اولادنا . أجل فهنالك فكرة خاطئة وهى أن هذة البواعث معدومة فى دور الطفولة وإنها انما تظهر طفرة فى مرحلة البلوغ . ومنشأ هذه الفكرة سوء فهم الحياة الجنسية . وقد ظلت للأسف عالقة بالأذهان حتي الربع الأخير من القرن العشرين عندما أخذ العلماء فى دراسة حياة الطفل التناسلية النفسية ، فاثبتوا وجود تلك البواعث فى طبيعته ، وكل ما فى الأمر ان هناك فارقاً بين مظاهرها فى الطفل وفى الشاب البالغ. ولعل الذين ينكرون وجودها فى الطفل يصرون على نظريتهم المغلوطه لأنهم كبتوا ونسوا فى نفوسهم ذكريات الطفولة .

على أن الحقيقه التى لا شك فيها ، ان الغريزة الجنسيه تنمو تدريجيا فى الطفل وهو بعد فى بطن أمه ، منذ أخذت الخلايا التناسلية فى التكوين . وازاء ذلك يجب أن يغير العقيدة البالية التى وصلت الينا على غير اساس ، وان نعامل الطفل على أساس وجود هذه البواعث التناسلية فيه وليس على أساس ظهور هذه البواعث طفرة ، بل على أساس وجودها ونموها وتقدمها في حياته فنتلطف معه فى انارته والاجابة على اسئلته ، ولنذكر أن الحيض عند الفتاة والقذف عند الفتى أمران يفزع كلاهما منهما إلا اذا سبق لنا أن

علمناها شيئا عن هذين المظهرين .

من الطبيعى أن الآب الصحيح البدن يجب أن يشب أبناؤه على الأخلاق السمحة ولهم عقل سليم ورجولة حقة . ويود من أعماق قلبه أن يراهم وقد انتقلوا تدريجياً من حياة التخيلات الطفلية الى حياة الحقائق (الرجولية) وبما أن الشاب ينحو فى دور التكوين نحو التقليد والمحاكاة ، فان أقرب مثال تنطبع صورته فى نفسه هو مثال حياة الأسرة . وقد عرف الآباء هذه الحقيقة لكنهم لم يفهموا كيف يتصرفون تصرفاً حسناً . فبكثير منهم يتظاهر أمام أولاده بما ليس فيه ، فيحاول أن يخفى عنهم نقائصه الشخصية وسلوكه المعيب . وهذا حسن من وجه. لكن الأفضل أن يكونوا كذلك قولا وعملا لا تصنعاً وتكلفاً .

ولا يفوتنى أن أشدد بمراعاة الدقه واللباقه ، ومجانبه الاستخفاف وعدم الرزانه فى تعليم الأولاد شيئاً عن مبادىء الحياة التناسليه . فالأب المستخف والأم المستهترة لا يصلحان لهذه الغايه ، كذلك الآباء ضعاف الاخلاق لا يصلحون لها .

والقاعدة الجوهرية : على الآباء والمعلمين والأطباء الذين يتبرعون بالقيام بمهمه تثقيف الطفل فى المسائل الجنسيه أن يوجهوا عنايتهم الى حياته السريه ويقفوا على مدى تخيلاته وحركات ذهنه وفى هذا يختلف جمهور الآباء فى التوصل لهذه الغايه ، فبعضهم يكتفى بالأقوال التى تصدر من أطفالهم طواعيه دون أن يسايروهم الى صميم نفسياتهم ليأخذوا فكرة صحيحه عن نوع تفكيرهم وهويتهم الشخصيه ومنهم من اذا حسنت علاقتهم بأولادهم

وتوطدت الثقة بينهم ، يتوصل الى غايته بطريقة السؤال والجواب وهى أفضل طريقة تمكنهم من تعليل المشاكل التى تعترضهم وشرحها شرحاً يطمئنهم . لكن اذا أحس الطفل بخجل وتهيب فى حضرة أبيه فانه سرعان ما يخفى حقيقة مشاكله عن والده

ولكن ليس الآباء كلهم على قياس واحد من حيث الاستعداد للقيام بهذه المهمة كما قلت قبلا : فاولئك الذين ظلوا فى جهلهم بهذه المسائل ، وأولئك الذين يتمسكون بالآراء البالية ، وأولئك الذين تساورهم مخاوف منشؤها حياتهم التناسلية ـ كل هؤلاء لا يصلحون للقيام بهذه المهمة ، بل على العكس نراهم يثورون فى وجه أولادهم اذا حدثوهم أو استفهموا منهم عن أمور تتعلق بهذه المسائل ، ويخجلون من كل ماله علاقة بها . كذلك الأم التى تنظر الى هذه المسائل نظرتها الى الشيء القذر تنتصل من هذه المهمة بدعوى أن التحدث عن تلك المسائل مع ابنتها يحط من قيمتها فى نظر تلك الابنة . ولأنها لاترى شيئاً من الجمال فى الحياة التناسلية وحياة الحب ، فانها تكتفى بتحذير ابنتها من بعض الحركات دون أن تعلمها شيئاً ايجابياً يفيدها وينيرها ولا شك أن فتاة كهذه تتلقى معلومات ناقصة من أم متبرمة ، تضطر مرغمة الى تلقى الحقائق من رفيقاتها .

است أنكر أن الاعتدال والحذر أمران مرغوب فيهما ، لكن ليس الى حد التطرف الذى يولد الجهل فى أهم عناصر الحياه فان المغالاه فى الحذر المقترن بالخشونه تترك فى الشباب احساساً

بالحقارة وخوفا دائماً وعدم ثقة فى الذات وشعوراً بعدم تقدير الزملاء ـ وبالاختصار نراه عرضة لمظاهر عصبية منوعة تستغرق جهده ونشاطه ، وكان الأفضل استغلالها فى أبواب صحية صحيحة . والشاب الذى يكبر فى هذا الجو ويتأثر بهذه الآراء العرجاء ، يحس بالاستعباد والتبرم بوالديه لأنهما أخفيا عنه الحقائق التى كان يجب أن يتلقاها ، وفضلا عن ذلك فانه يميل الى حياة التخيلات وهى حياة ضارة بقواه العقلية أيما ضرر .

فاذا صدرت من الطفل إحدى الحوادث التناسلية أو أبدى اهتماما بأحد مظاهر تلك الحياة ، وأخذنا فى معاقبته على ذلك ، فاننا نؤذيه أبلغ الأذى . والأفضل ان نأخذه بالرفق واللباقة : فاذا لاحظنا ان ذلك الحادث التناسلى أو ان تفكيره ، فى احد مظاهره ، غير ناضج وغير صحى ـ نشرحها له بطريقة سهلة مفهومة ونبين له ان الصورة التى ابرز بها فكرته صورة غير صحيحة ، أما اذا عملنا على اخجاله فاننا نربى فيه الاحساس بضآلة النفس وعدم الكرامة ونشعره بالتهيب من كل أمر .

ولكن يجب مراعاة اختيار الوقت المناسب لتلقين المبادىء والمعلومات الخاصة بالمسائل الجنسية ، وأن كنت قد أشرت الى التبكير فى التعليم . على انه من الطبيعى انه ليس فى مقدورنا أن نحدد الوقت الذى يناسب كل طفل ، بالرغم من العلامات البدنية والنفسية التى قدمناها للآباء لمعرفة دور البلوغ على أن التبكير بصفة عامة أنسب الأوقات ، وذلك قبل ان تتكون فى

مخيلة الشاب تصورات خاطئة عن تلك الأمور. ولنذكر انه مهما كانت الاحتياطات التى نحيط بها أولادنا حتي تحول بينهم وبين تلقي تلك المبادىء، فانها لا تقف حائلا كما نظن . ولنفرض أن فتاة أحيطت بمثل هذه السياجات، وظلت فى حالة الجهل حتى السادسة عشرة من عمرها (كما شاهدت ذلك في حالات متعددة تحت العلاج عندي) فلا شك انها تلجأ الى صديقاتها أو خادمتها لتتلقى معلومات هى اسوأ ما يكون أثراً على نفسها فتسوء معها العاقبة لهذا يحسن ان تتلقى هـذه المعلومات عن طريق شريف وشخص مثقف، وفى وقت مبكر معقول واذا ابطأنا حتى تكبر فاننا نجنى عليها جناية لا تغتفر ونربى فيها الشعور بالندم طول حياتها .

وكقاعدة عامة : متى لسنا فى الطفل اهتماماً وتساؤلا عن هذه الأمور، فذلك أنسب وقت لتعليمه. ومراعاة الوقت المناسب أفضل من طريقه التعليم بصورة ميكانيكية . ومتى أخذنا نقوم بدورنا فى هذا الوقت اللائق فلنذكر انه يجب ان تكون اجاباتنا على اسئلة الطفل صحيحة كاملة مشفوعة بالحكمة والاتزان فلا نربكه بالأمور المعقدة التى يستعصى عليه فهمها، ولا نذكر له ما يستفز مشاعره أو يحرك خياله . وليكن الأب أو الأم لبقين فى تعليمه صراحة الى حد ما. ولا يفوتنى أن اشير الى ضرر التأخير فى التعليم، فهو من جهة أخرى ضار ايضا فلو أخذت الأم مثلا فى تعليم ابنتها فى الخامسة والعشرين من عمرها فانها تثير فى نفسها القلق والتبرم لأنها أرغمت منذ الطفولة على مقاومة التفكير في هذه المسائل

والآن وقد بسطت للقارىء وجهة نظرى فى ضرورة تعليم أولادنا شيئاً معقولا عن المسائل الجنسية، وتحدثت اليه عمن يليق بهم أن يهتموا بهذا الأمر، وهم الطبيب والمعلم والأب، وذكرت له الاتجاه الذي ينحو اليه كل منهم - والآباء بصفة خاصة - فيما يتصل بهذا الأمر، وتحدثت اليه عن أصلح وقت للقيام بهذا الدور الثقافى - لا يسعنى الى أن أختم بما بدأت به وهو ضرورة قيامنا بهذه المهمة لكى ننشىء جيلا صالحاً من كل وجه ؟



الفصل الثانى

المؤثرات العائلية فى الاخلاق

لاشك أن الروابط العائلية أساس لمعظم العلاقات المستقبلة ليس فيما يتصل بالمسائل الجنسية فحسب ، بل فيما له علاقة بمشاكل الحياة المنوعة وبنفوذ الفرد . على أن التأثير العائلى ليس واحداً فى كل أسرة نظراً لاختلاف أمزجة أعضاء الأسرة الواحدة عن الأخرى ، فنرى فى هذه العائلة اعضاء دمثى الاخلاق ، ونرى فى تلك أعضاء ثائرين — ومن هنا نشأ اختلاف المؤثرات العائلية من حيث معاونة الأولاد أو ردعهم . لذلك يتحتم علينا ان نعنى عناية دقيقة بدراسة حياة الطفل الذهنية ، وميوله النفسية واتجاهاته فى الحياة ، والرغبات التى تسوده ، ومؤهلاته ، وكفايته فضلا عن دراسة حياته الجسمية .

وعلى اكتاف اولئك المسؤولين عن الطفل فى الخمس السنوات الأولى (وهى أهم سنى تكوين الشخصية ، تقوم مهمة تكوين المميزات الاخلاقية فى الشاب المراهق . وهذه المميزات والاتجاهات تنشأ بفعل النصيحة والقدوة . ومن هنا نرى ان الآباء يحددون مستقبل الطفل فى ميوله ومسالكه ، كما نرى تأثيرهم فى تحديد الباعث الجنسى . ونظراً لخطورة هذه المؤثرات فى المرحلة الأولى

من مراحل تكوين الطفل ، وجب ألا يعهد تكييف الأخلاق الى الخدم أو غيرهم من الأشخاص المأجورين .

على أن كثيراً من الآباء لا يهمهم للاسف ملاحظة نمو أخلاق بنيهم ، لأنهم يستخفون بمسؤوليتهم وقلما يفكرون فى خطورة اهمالهم من هذه الناحية . فهذا أب أسقط الاهتمام العائلى من حسابه وهذه أم تصرف مجموع تفكيرها فى مظهرها الخارجى وتهمل تربية أولادها ، لأنها لا تود ان تعنى فى سبيل تنشئة أولاد صالحين ـ ومحبة الأمومة نوع شريف من نكران الذات والتضحية فى سبيل مصالح الابناء ، وأني لمعظم نسائنا شرف التضحية فى هذا الميدان ؟

ولقد لاحظنا ان المحبة والتضحية ورعاية مصالح الاولاد ، تنشىء لنا جيلا من الابناء السعداء فى مشاعرهم واللطفاء فى معشرهم وأخلاقهم المحمودة . كما لاحظنا ان الآباء ذوى الاخلاق الحسنة ولتصرفاتهم الممدوحة] والمسلك الجميل ينجبون أولاداً ذوى أخلاق سمحاء وآداب سامية . لذلك أهيب بكل أب وأم أن يظهروا أمام ابنائهم في صورة أدبية كاملة حتى ننشىء فيهم الآداب الرفيعة ونجعل منهم وحدة اجتماعية صالحة .

ان أحب الاشياء لدى الطفل هى الحب واللعب ، وبمقدار ما يفوز فى عامه الأول بالحب ،يظهر الذكاء والأخلاق المعتدلة فليس أنفع له فى حياته من احساسه بالسعادة وشعوره بانه محوط بجو من التشجيع . والناس بصفة مطلقة يميلون الى المحبة والكرامة

واظهار النفوذ ، فالشاب الذى يلمس من أولياء أموره المعاملة الحسنة وحفظ الكرامة وروح الصداقة والألفة ـ يحس بالغبطة فى حياته ، بعكس الشاب الذى يحيط ذووه بجو من الرهبة يشعر فيه بحقارة نفسه . فانه يخفى احساسه بالحقارة تحت ستار امراض نفسية وعصبية التى يستبدل بها فيها ما فقده من حنو فى وسط أسرته . وقد لاحظت ان الاحساس بحقارة النفس وعدم الثقة فيها ، أمر شائع فى الاطفال الذين يعاملهم ذووهم بالقسوة أمام الآخرين . وان الطفل الذى لا يحيطه أهله بالحب والرفق يشب وهو مجرد من كل عاطفة رقيقة نحو الآخرين ، بل انك لتراه فى عداء هائل ازاء كل من يصطدم به لسبب تافه . وسنرى فى الصفحات التالية ان هذه الظاهرة ترجع الى مظهر تناسلى نفسى .

وعندى انه لو ذكر الآباء وأولو الأمر أن الاطفال هم الدرة الغالية في كنوز الانسانية بل رأس مال الهيئة الاجتماعى الباقى على الزمن ـ لبذلوا جهوداً حقيقية فى سبيل الحيلولة دون ظهور تصرفات ناقصة فى الأطفال ، فيعالجونهم من الاختلافات والشذوذ الأدبى والاخلاقي والاجتماعي . ولكن حذار من أن نزرع فيهم المخاوف ونشعرهم بنقص التربية وعدم الفهم .

ولأن الطفل ميال بطبعه الى الحرية فى العمل ، فقد يقف من رغائب والديه موقف العداء ، اذ هو يحب ذاته بينما يحاول أبواه أن يظهراه فى الشكل الاجتماعى الذى يريدانه ـ وهاتان رغبتان متناقضتان . فالأفضل ان نحذر من محاولة تجريده من حرية

الأختيار ، والاستقلال فى الافكار . وهذا يحتم علينا ان تكون لنا فكره صحيحة عن حركاته ، ووجهة نظره ، واتجاه تفكيره وهى مهمة شاقة على كثير من الآباء .

ولا ننسى ان جو الاسرة الهادئ يوقظ نفس الطفل ، ويهيء له حياة مستقبلة موفقة — بينما حياة الاسرة التي يتخللها حب الذات وتقييد الحرية ، تميت شعوره وتقتل ميله وحبه للحياة . فالمنزل الذى تسوده المحبة ، تكفى فيه مجرد الاشارة للتهذيب والارشاد وبهذه المناسبة ، أوصى بالارشادات والنصائح الايجابية ، لان النوع السلبي منها — أى مجرد النهى والانتهار خلوا من الكلام اللين — يضر الطفل كثيراً . ولكن هذا لا يعنى الرخاوة فى التربية فاننا علي العكس نشدد علي ضبط النفس فى شيء من اللين فالأختبار يدلنا مثلا أن الطفل يميل الى تكرار العمل الذى يجلب له السرور . فلو لاحظنا ان هذا العمل يتنافى مع الآداب ، فواجبنا ان نعدله . ونصححه ، فلتكن طريقة تعديله خالية من القوة بل لتقترن بها المحبة واللباقة حتى لا نعوق بالقوة والعنف نحو قواه العقليه فى اتجاه سليم . ولنذكر فوق ذلك ان القدوة الصالحة والتدريب الهادئ يفعلان فى النفس اكثر مما يفعل الكلام الكثير لاسيما مع الآباء الذين يتحدثون بطريقة مكشوفة أمام اولادهم ناسين قوة الذاكرة وحدة الملاحظة فيهم .

ومتى جاء وقت المدرسة ، فأنها تضطلع بالطبع بجزء من واجبات الآباء . فالمرة الأولى التي يذهب فيها الى المدرسة هي الحجر

الاول فى بناء تاريخه. فضلا عن أن لشخصية المعلم تأثيراً فى مستقبل نحوه . ونستطيع أن نحكم على الطفل من حيث مزاجه ، من اللعبة التى يفضلها على غيرها ، كما نقرر ان الطفل المجرد من قوة التخيل والابتكار طفل مريض او على الأقل ناقص التكوين

من المسلم به أن الآباء هم أول من تتجه اليهم عواطف الطفل ففى أول عهده يتجه بحبه ، سواء كان ذكراً أو أنثى ، الى الآم ثم يتطور هذا الاتجاه فنرى الابن يحب أمه والبنت تحب أباها . ومع أن هذا الحب ممدوح من اطفالنا وطبيعى ، لكن ليس من الصواب ان يظل حبهم قاصرا عليها مركزاً فيها دون الآخرين لأن ذلك ينشىء فيهم إغفال الآخرين ، وفضلا عن ذلك يؤثر على ميولهم الجنسية ، ويعطل جزءاً هاماً من التقدم الاجتماعى .

تحدثنا عن أثر الأسرة فى تكييف بواعث الطفل . ونتحدث هنا عن عاملين آخرين ، هما الكبت والقمع . وعوامل الكبت عوامل غير شعورية تصدر عن العقل الباطن وتضبط البواعث الغريزية . أما عوامل القمع فهى روادع شعورية حساسة : الأولى فطرية ، والأخرى نتيجة التعلم والدراية .

ينقاد الطفل فى أعماله وحركاته بمبدأ البحث عن اللذة والسرور الذى يؤدى الى تحريك وانماء وظائفه البدنية فسيولوجيا. (١) وهو بطبيعته محب لذاته ، إذ ان بعض أعضاء جسمه مصدر لذة له .

---

(١) يحسن قراءة كتاب الاستاذ فرويد فى هذا الموضوع وعنوانه

Three Contributions to the Theory of Sex

لكن عوامل الكبت والقمع تولد فيه الاستياء والخجل والحياء والحشمة ، ولو أنها تخلق فيــه التعفف والذوق السليم امام المجتمع والتعفف فى دور المراهقة مظهر من مظاهر المدنية الحاضرة رسخ فى أساسها بتأثير التربية والتهذيب اجيالا عديدة .

قلت ان عوامل القمع ذات أثر شديد فى تربية الطفل ، ولكى يؤتى ثمرها يجب استخدامها تدريجياً فى غضون الاثنى عشرة سنة الأولى من عمره . لكن حــذار من التطرف فى استخدامه الى الحــد الذى يفوق طاقة احتماله ، وحذار من اشعــاره بالخجل . لأن القسوة والعنف من جانب الآباء ينفر الطفل ، كما أن القمع المخيف يؤثر فى نمو حب المثل الأعلى فى نفسه . ومن جهةأخرى فاذا شب فى هذا الجو فانه لا يفتأ يكبت شعوره بدعوى ان هــذا الكبت يصقل هذا الشعور ويخفف من حدته. لكن هذا لا يعنى أن يستهتر الآباء ويستخفوا ، فالتطرف والتفريط يؤذيان الطفل فى نزعته الاستقلالية وكفايته الشخصية .

هذا ومن المستحيل أن نجرد الغريزة الجنسية من قوتها وتأثيرها لذلك يجب ضبطها وتنظيمها لئــلا تؤدى الى الأمراض النفسية التى تسبب التعاسة والشقاء والاحساس بعــدم الاطمئنانــ ، والتى تستنفذ النشــاط العقلى وتضييق دائرة التصرفات والرقى الاجتماعى . ويلاحظ اننا لا نعنى بهذا أن ننشىء جيلامن الاطفال المجردين من الحياء الجنسى ، بل نقصد أن نلفت النظر الى أنــ الامراض النفسية تنشأ من اضطراب الحياة الغريزية والنضال

بين النفس ومثلها الأعلى او الضمير. وهذه مشكلة عويصة استعصى حلها حتى قال أحد العلماء : ان بين المدنية وبين دوافع الغريزة تناقضاً ملموساً ، وذلك نظراً الى المقاومات المتواصلة ضد الميول التناسلية .

والواقع ان مظاهر الأخلاق فى الفتى المراهق نتيجة لتأثير عوامل الكبت على مختلف عناصر الغريزة الجنسية . وهذه العوامل من شأنها ايجاد نظم وتسويات اجتماعية سليمة، والآباء على اختلاف عقلياتهم يحبون لأولادهم هذه النظم التى تضمن لهم صحة موفورة . ومن الجهة الأخرى فان الشاب الذى يلقى بعوامل الكبت الأدبية والدينية المعقولة عرض الحائط، ويضحى الكرامة الاجتماعية فى سبيل الظهور بمظهر القدرة الجنسية ـ فى خطر من الأمراض . والعكس بالعكس ، فان القوة الاجتماعية تتضاعف اذا دعمت وتعززت بشيء من الحرية الجنسية المتزنة اذن فالقدرة على تكييف وتوجيه الغريزة الجنسية تتوقف عليها عوامل بناء الشخصية أو هدمها ، أو بمعنى آخر تتوقف عليها سعادة الفرد أو شقاؤه فى المستقبل .

والروادع التى تؤثر على البواعث الجنسية يدعمها ويعززها التعفف ، والاعتدال ، اوالحياء الرزين ، كما تعززها أيضاً الآراء والأفكار الأدبية والدينية . أما اذا ظل الحياء والخوف اللذان يلازمان الشاب، فانهما يؤثران على الباعث الجنسى حتى ينعدم فيه الميل التناسلى . فاذا اشتدت بعض الاحيان الميول الجنسية وتجاوزت

هذه الروادع فانها تولد فيه القلق وعدم الاستقرار . ومن الناحية الأخرى اذا ضيق الخناق على الغريزة الجنسية ، فلا يتوقع نمواً فى حيـاته الجنسية وفضلا عن ذلك ينشأ فيه الخوف والوساوس والقلق العصبي والتردد وعدم الثقة بالنفس واليأس والشعور بالذنب والهستيريا وغيرها من الاضطرابات التى تنمو يومياً حتى تصبح أمراضـاً مستعصية تفتك بشخصيته . ومثل هذا الشاب يندفع بعض الاحيان وينغمس فى صالات الرقص الخليع ، والمنتديات الخليعة لعله يجد فيها إشباعا للذات وتعويضاً لسعادته المفقودة .

والأفضل والأصح هو أن يقيم من نفسه حارساً على ميوله كما تقتضى ظروف الحال . فالميول المـكبوتة تنشىء التبرم ، كما أن اطلاق العنان لها من غير تدعيم الروادع الأدبية الصحيحة ينشىء خطراً كبيراً . غير أن الاحتياط المعتدل ضد الحرية التناسلية ، يغرس فى الطفل أخلاقاً فاضلة . واذا لم تحسن إقامة هذا السور المعتدل فاننا ننشىء فيه تطرفاً فى ميوله الجنسية . ولئن كان معظم الآباء يزعمون أن الردع والقمع يخلقان صفات وشخصيات سامية ، فهذا زعم باطل يكذبه ما نراه فى أولئك الشبان الذين لايشعرون أنهم يحيون حياة الحب الصحيح بسبب الروادع المتنوعة الـكامنة فى طبائعهم بفعل التربية الخاطئة أما اذا أحسنا قيادة الطفل وتنظيمه فاننا ننقذه من المشاكل المتعددة التى يخلقها سوء نظم التربية . ولعل القارىء يعرف أن دور المراهقة يصل الى أشده مابين الرابعة عشرة والثانية والعشرين .

الفصل الثالث

الغريزة الجنسية

ان الوظيفة الرئيسية لكل حي هى البقاء على قيد الحياة . والانسان باعتباره شخصاً حياً يؤدى هذه الوظيفة بوسيلتين : هما حفظ النفس وزيادة النسل على أن الوسيلة الثانية أسمى مرتبة من الأولى لأنها ليست أنانية مثلها إذ حياة المرء لذاته نوع من الأنانية يهدم البشرية .

وزيادة النسل تتوقف بالطبع على الميل الجنسي ، أى الغريزة التناسلية فى الانسان ، وهذه فى الواقع كل حياته بدنياً وعقلياً وأدبياً . وهو يرى فى مظاهر هذه الغريزة باعث اللذه والسرور على أن تركيز أفكاره وانغماسه وراء هذا الباعث دون رعاية المسؤوليات الأدبية المرتبطة بنتائجه ، دليل على نقص في تكوينه الذاتى،لأن غاية الحياه ليست فى اللذة وحدها، بل كذلك فى القيام بالواجب والبذل والتضحية ـ وفيه ضرورة لابد منها لمن أراد لنفسه جسماً سليماً ، وحياه خالية من الأمراض . ولعل أفضل ما فى التهذيب والثقافة أنها تعلم الانسان كيف يضبط غرائزه وينظم مسلكها فلا يكون تحت رحمتها .

ونحن نعرف الغريزة بأنها صورة من صور الفعل ، ترمى

أسلوب سلالى من أساليب الحياة ، بمعنى أنها تتمشى مع السلالة البشرية . بعكس العادة التى هى صفة يكتسبها الفرد في حياته اكتساباً ، بواسطة التكرار . وفى عبارة مختصرة ، الغريزة ميل فطرى سابق للعادة ومستقل عن التعليم وهو الذى يدفع الانسان للقيام بالأعمال التى يستلزمها وجوده .

وقد حدد أحد العلماء الغريزة بأنها القدرة على العمل بصورة تتم بواسطتها بعض الأغراض التى يجهلها الانسان ولا يعى لها ، وهذه القدرة لا يعوزها التدريب أو الاختبار . وهذا التحديد أو التعريف يحصر الأعمال الغريزية فى عاملين هما الجوع والحب .

أما الباعث فهو مظهر من مظاهر النشاط غايته ابراز الفعل ، أعنى أنه قوة دافعة محركة . يمتاز بالرغبة فى البدء في العمل وبالاقدام عليه .

قال الشاعر شيللر «ان الجوع والحب يسيطران على العالم» . وهو قول حق : فان أعظم الميول أثراً وثباتاً هما الميل الجنسى والميل الاجتماعى . والواقع ان كل الميول المؤثرة هى صور من صور الجوع والرغبة فى اللذه . على أنه لا بد من التوفيق بين الرغبة وبين وسيلة الاشباع . فاذا وجدنا فى أحد الأشخاص عدم الرضى فهذا دليل على رغبة جائعة .

والغاية الأولى والأخيرة التي تتجه اليها البواعث الجنسية هى تكوين رجال ونساء كاملين ، يعنى كل منهم بالآخر عنايته بنفسه وينشئان بالزواج نسلا صحيحاً . ومن هنا نرى فى الجماع غاية

بيولوجية لتكوين الحياة . فاذا تقدم الشاب فى دور المراهقة الى حالة الكمال الجنسى ، تدخل الغريزة الجنسية فى دور الخدمة البيولوجية التناسلية ، ودور الخدمة الاجتماعية للخلق والتكوين . على أن كل الناس لا يصلون الى نهاية الكمال الجنسى : فبعضهم يقف بالنسبة لميولهم موقف النمو الابتدائى ، وبعضهم يصل اليه ولكنه يتقهقر ويعود الى مرحلة الطفولة . والبلوغ الجنسى الصحيح معناه أن الشاب قد تغلب على اتجاهات الطفولة الأولى نحو الأنانية Narcissism ، وهو يتضمن ضبط الاحساسين المتناقضين فى النفس أى حب المحبوب وبغضه Ambivalency . ولقد دلتنا الدراسات المختلفة على أن معظم الرجال يجامعون نساءهم بكيفية ناقصة ، وهذا يرجع الى الكفاح بين الرجل والمرأة لسبب عدم ظهور علاقات الرجولة الكاملة فى الأول والأنوثة الصحيحة فى الثانية .

ويعتقد كثير من العلماء أن الكبت والقمع يظهران بعض الفروق فى الذكر والأنثى . فلأن الأنثى هى العضو الأهم بيولوجياً ، فيجب استعمال الكبت والقمع اكثر معها لتحديد نشاطها الشهوانى . كما يجب استخدامهما مع الرجل الخليع وهو فى الواقع أقل خطراً من المرأة الجامحة الشبقة . والعفة فى المرأة ضرورة لا بد منها — لكن هذا لا يعنى أن تظل بعد الزواج جامدة الاحساس فان هذا الجمود مظهر لمرض نفسى .

لكن الشهوة التى تحفز الانسان على الاحتكاك البيولوجى يجب ألا يداخلها باعث حفظ النفس . وقد اتفق على أن غريزة

حفظ النوع أقوى عند الشاب المراهق من غريزة حفظ النفس . فالانسان ذو الأخلاق السامية يضحى بحياته لأجل أطفاله أو اخوانه أو وطنه والواقع ان حفظ الجنس قائم على الغريزة الجنسية وهى أقوى ما تملك .

ولقد كان القدماء يعززون ويغذون الباعث الجنس ذاته بيد نحن نعزز ونغذى مصدر الحب ، أى الحبيب أو المحبوبة كما نعزز الناحية الأدبية من الحياة التناسلية . فالفتاة المهذبة مثلا توصيها ألا تتزوج إلا الرجل الذى يحبها والذى يفهم الجانب الشعورى من الحياة التناسلية ، الذى لا يعوق نموه التناسلى شىء من العوارض النفسية .

ان الوظيفة الرئيسية للمرأة هى ولادة الأطفال وتربيتهم وإعداد المنزل . والرجل أيضاً عامل مشترك فى التناسل وتكوين الأسرة مع اختلاف الطريقتين . وأحب أن أتحدث عن المرأة من حيث الباعث الجنسى فأقول : يظل فى كثير من النساء عامل اللطف والحساسية (وهما طرفا الغريزة أو الباعث الجنسى) غير ممتزجين وبذ تخمد الغريزة الجنسية فيهن . على أن فترة العفة قد تغير هذه الحالة . ثم أن الحيض يزيد فى ميول المرأة الجنسية ، ومع أن هذا الميل يقوى فى دور البلوغ ويشتد الى أن الفتاة المتوسطة تتضاعف معها فى هذا الدور عوامل الكبت والقمع . وهنا أحذر المسؤولين من تخويف الفتاة من الرجل ، بل علينا اذا أردنا لها الخير ان نعلمها الحقائق البسيطة التى تعاونها فى ضبط شعورها

ونجد غالباً بين الفتيات تهيجاً فى الاعضاء التناسلية دون احساسهن بالميل التناسلى لانه سبق أن كبت فيهن بشدة ، والفتاة التى من هذا النوع ترجح عندها كفة الخدمة الاجتماعية على ميول الانانية فتحب الاشتراك فى الجمعيات الخيرية أو مواساة الفقراء أو خدمة المرضى وغير ذلك من النشاط الاجتماعى. ولكن بعكس ذلك لا نجد فى معظم الأحوال هذا النشاط فى الأولاد فاذا ظلت عوامل الكبت مؤثرة حتى دور البلوغ دون أن تتحول القوة الكامنة الى منافذ أخرى أثرت على الشخصية واضطربت النفس فتحاول أن تنفس عن هذه الرغبات المكبوتة بواسطة طرق غير مباشرة لا يفقهها الشخص المريض النفس ونسميها أعراض مرضية. ولكن اذا شرحناها له بانها أساليب سالبة لتحقيق رغباته التناسلية المكبوتة عارض فى ذلك بشدة ورفض أن يعترف بأى رغبة تناسلية فى نفسه وذلك حقيقى لعدم وجودها فى وعيه (العقل الظاهر) .

وبعض السيدات تتسامى فيهن الرغبة التناسلية الى حب المطالعة والثقافة العامة . وللنساء بصفة مطلقة القدرة على ضبط الدافع الجنسى اكثر من الرجال ويغالى فى ذلك بعضهن *

---

* يحسن قراءة كتاب Hitschmann المسمى
Sexual Frigidity in Women
كذلك كتاب A Thousand Marriages لمؤلفه
R.L. Dickinson

ولذلك نلاحظ أن برود العواطف أمر شائع بين النســاء ويرجع السبب فى ذلك الجمود الى استمرار تمسكهن بوسائل اللذة الطفلية وكذلك لوجود عوامل كابتة فى عقلهن الباطن تمنع نمو وظهور هذه الرغبة التناسلية .

والاتصال الجنسى (الجماع) معناه حصول الرجل والمرأة على الاشباع التناسلى . ولكن قد يختلفان فى المــدة التى يحصل فيهــا الاحساس باللذة بان لا يكون الشبق عند الرجل فى نفس الوقت عند المرأة ويرجع ذلك لسرعة القذف عند الرجل وبطء الاحساس باللذة عنــد المرأة . وعلى أن السيدة التى تشعر ببرود العواطف تحس فى بعض الاحيان بلذة جنسيه لان هــذا البرود والجمود نسبيا . واعتقد ان عدم الحساسية التامة كما تدعيها بعض النساء نادر جداً فنجد بعضهن يعجبن بصفة أو أحدى الخصال فى رجل ولكنها تشعر باشمئزاز وكره لعادة أخرى فيه وهذا ما يسبب عدم تجانسها نفسيا معــه ويتوقف ذلك على أى الشعورين يكون له الكفة الراجحة ساعة الاتصال الجنسى . فاذا أصــابها مرض عصبي فمن العبث علاج اعضائها التناسلية لأن مصدر التعب ليس فى الاعضاء ذاتها بل فى اضطراب حبها .

ذكر وأنثى معا BISEXUALITY

لا يمكن فهم مظاهر الغريزة الجنسية الا اذا عرفنا الحقيقة الآتية وهى ان كل شخص يمثل الجنسين (الذكر والأنثى) فى وقت واحد حتى دور البلوغ حيث يبتــدىء يختلف كل منهما

عن الآخر ويتميز كل من الذكر والأنثى ثم يبتدىء تجاذبهما حين يتم نضوج الخلايا الجنسية (Gonads) فى الجسم وهى الحيوانات المنوية والبويضات ولكن هذا الطابع (الذكر والأنثى) يوجد فى العقل الباطن منذ ولادة الطفل ولو أن معظم الناس لا يودون الاعتراف بهذه الحقيقة ولكن البحث العلمى دل على أن الرجال والنساء على الاطلاق يحوى كل منهما أعضاء التذكير والتأنيث من الوجهة التشريحية ليس فقط قبل الولادة (جنين) بل وبعدها . فمثلا عند الرجل نجد أثار الثديين والحلمتين وعند المرأة نجد البظر (يماثل عضو الذكر) والشفرتين (تماثل الخصيتين) .

ونجد بعض الاشخاص ولهم نفسيتين ذكر وأنثى فى آن واحد مع ان أعضاؤهم التناسلية تبين جنساً واحداً ، فترى بعض الرجال يهتمون جداً بتجميل وجوههم فيضعون (الكريمات والمساحيق وغير ذلك من أدوات الزينـة ويتأنقون في ملبسهم كأحسن سيدة ويرغبون في معـاشرة بعض الرجال وعلى اليد الأخرى نرى بعض النساء يحببن ان يتزين بالبـذلة ويلبسن الكرافته ويقـلدن الرجال فى كثير من حركاتهم وخشونتهم ونرى بعض الاشخاص تتغلب عليهم ناحية الانوثة فى بعض الأوقات وفى البعض الآخر تتغلب عليهم ناحية الرجولة.

أصل الدافع الجنسى

لم تزل الابحاث فى علم وظائف الجسم (الفسيولوجيا) غير جلية بخصوص تأثير الغدد الصماء كالغدة الدرقية والنخامية وغيرهما

على الحياة التناسلية والمنتظر ان تظهر حقائق واكتشافات كثيرة بخصوص هذه التفاعلات الكيميائية ولكن مع ذلك لا يمكن أن نفسر جميع المظاهر التى نراها. فمثلا العنه (عدم الانتصاب) لا يمكن تفسيره من وجهة عضويه فقط وما هو مدى تأثير الهرمونات والتفاعلات الكيمائية فى الدم وتأثير الاعصاب؟ ولكن الواقع أن الحالة النفسية تلعب هنا دورا هاما .

أما تفسير هذا الدور فليس من السهل ايضاحه فاذا بحثنا من الوجهة البيولوجية نجد أن جميع التأثيرات سواء كانت داخلية أو خارجية للاعضاء التناسلية مع افرازات الغدد هى المسببة للدافع الجنسى . ولكن هذا التفسير فى حد ذاته غير تام لأننا نجد بعض الاعضاء فى الجسم خلاف الاعضاء التناسليه تثير الدافع الجنسى وكذلك اظهر لنا أحدث الابحاث ان ضغط المنى فى الحويصلات المنوية لا يثير الشهوة فاذا بحثنا عن مصدر هذا الدافع الجنسى (بصرف النظر عن الشخص المسبب له) نجده يظهر بقوة فى الاشخاص الصحيحي الجسم ولا يشكون من جوع أو خوف أو تعب والعامل النفسانى هو أهم جزء فيه .

ويوجد في الطفل حساسية مثيرة للذة فى بعض اعضائه ولكن عند البلوغ تتركز هذه الحساسية بشدة فى الاعضاء التناسلية حتى تبدأ مهمتها الجديدة وهي حفظ النسل. وكذلك يبدأ عمل الجنسين المختلفين الذكر والأنثى .

ويتكون الدافع الجنسى من بواعث أولية كالمنظر الجميل والرائحة الزكية والصوت الحسن ونعومة الملمس وغير ذلك . ولكن أهم باعث لعمليه الانتصاب هو العامل النفسى الذى يؤثر بشدة على الدورة الدموية والأوعية . فمتى وجد الرجل هذه البواعث فى امرأته وهي قبلة حبه يتم الاتصال الجنسى الصحيح ويحصل الشبق .

وتتحول الدوافع الأولية فى الطفل مثل حب اظهار جسمه عاريا Exhibitionism والقسوة Sadism وحب الاستطلاع Curiosity الى الظهور بملابس خفيفة على المسارح أو فى لبس فساتين السهرة عند السيدات. وتحول القسوة الى شدة المنافسة كما هو مشاهد بين التجار أو الأحزاب وغيرهم، وحب الاستطلاع الى شدة الرغبة فى العلم والثقافه. أما اذا لم يحصل هذا التحول والتسامى وبقى جزء من هذه البواعث المتعددة بشكله الأصلى نجم عن ذلك اضطراب نفسى نتيجة النضال الداخلى بين الرغبة فى تنفيس هذه البواعث بشكلها الفطرى وبين المجتمع وقوانينه ونواهيه، وليس لعامل التناسل فى حد ذاته . فبعض الأشخاص يحاول التخلص من هذه الدوافع بطرق مختلفه فبعضهم يكبتها فى اللاشعور بدون عمل تسامى لها Sublimation أى تحويلها الى نشاط فى اغراض غير الحالة التناسلية كالخدمات الاجتماعيه والفنون الجميلة وغير ذلك

كما أن البعض الآخر ينفسها بشكلها الاصلى، بينما آخرون يستبدلونها دون وعيهم باعراض مرضية نفسية .

الفصل الرابع

مراحل النمو فى الحياة التناسلية النفسية

يختلف الدافع الجنسي فى كل انسان من حيث مظاهر تنفيسه ففى بعض الناس يجدله منفسا مكشوفا وطبيعياً وفى البعض الآخر نظراً لتعاليمهم الدينية أو آدابهم التى لا تسمح حتى بالتلميح إليه وكذلك اذا كانت الظروف الاقتصادية حرجة جدا لا تسمح بالزواج والتمتع بالحياة الجنسية الحقة فان الشاب أو الشابة تكبت هذا الدافع فى نفسها وتفرح لأنها نسيته ولم تعد تشعر بقوته التى كانت تضايقها، ولكن الحقيقة ان هذا الكبت جعل هذا الدافع فى طيات اللاشعور (العقل الباطن).

والآن سأبين مراحل هذا الدافع الجنسى من الطفولة الى البلوغ فالاطفال لا يفهمون التناسل بالمعنى المعروف لدى الكبار بل مسيرون بدافع حب اللذة والابتعاد عن الألم

Pleasure-pain principle

وهذا هو السبب الذى يجعل الكثيرين يعتقدون ان مرحلة الطفولة ليس بها أى شيء تناسلى لانهم نسوا بتاتا عهد طفولتهم وأصبح فى العقل الباطن وليس من السهل استذكاره . ولكن نظرة سديدة الى أطفالنا وملاحظتهم بدقة فى حركاتهم وميولهم تدحض رأى جميع من ينكرون الدافع الجنسى فيهم وكل

ما فى الأمر ان الرغبة فى اللذة يضعفها ويقللها فيهم العمل الشاق والدراسة المتواصلة ووسائل القمع المختلفة وهذا الأخير يحفزهم للحصول على اللذة بطرق أخرى فهم يجدون تعويضا عنها فى القسوة التى يظهرونها لبعضهم . وفى حب الظهور وكذلك فى المشاكسه وطلب العقاب وهذه كما نعلم أمور شائعة بين الاطفال لا يتخلو نعنها الا بنمو اللطف والعطف فى مستقبل أيامهم .

ونجد فئة قليلة جداً من علماء الأمراض العقلية تعتقد فى الرأى القديم وهو ان الاضطرابات والشذوذ الجنسى نتيجة الوراثة وهو تفسير واهى للطبائع والاخلاق التى نراها فى الفرد والحقيقة ان معظم هذه الطبائع والاخلاق قابلة للتغيير والتحسن بواسطة العلاجات الحديثة وهذا ما يدحض ان اصلها وراثى فقط.

وعندما يتكامل النمو التناسلى النفسى يحدث تحول في مواضع اللذة فى الاعضاء التى كان يشعر بها . ففي مبدأ الامر فى عهد الطفولة كانت حساسية الفم هى التي تعطى له أعظم لذة عند مس الشفتين لثدى أمه وبذا يقبل على الرضاعة بشغف ،فاللذة الذى يجدها ليست من نزول لبن أمه فى الفم بل من احتكاك الشفتين بشىء وهذا ما يدعو الاطفال لوضع أصبعهم أو أى شىء آخر فى الفم باستمرار. وهذهالحساسية فى الفم Oral Erotism خدمت غريزتى حفظ النفس بتغذية الطفل بلبن أمه وكذلك نفست عن غريزة حفظ النسل بوجود هذه اللذة .

وتنتقل هذه الحساسية أيضا الى الشرج فتساعد فى خدمة

هاتين الغريزتين أيضا بنزول البراز (غريزة حفظ النفس) واللذة التى يشعر بها الطفل عند احتكاك البراز بالشرج (غريزة حفظ النسل)

ثم تنتقل الحساسية بعد ذلك عند دور البلوغ الى الاعضاء التناسلية فتأخذ منتهاها حيث تبدأ مهمة اخرى غير اللذة الطفلية وهى التناسـل وحفظ الجنس . على أن تتنفس طبيعياً من هذه الاعضاء ، وتقل تبعا لذلك الحساسية فى الفم الى جزء بسيط جدا يشعر به الشخص عنـد التقبيل ؛ ويستعمل كأداة لتهيج الاعضاء التناسلية حتى تؤدى مأموريتها المقدسـة دون عبث بها أو كبت لها .

ويتحول كذلك مصدر الحب الذى يعطى هذه اللذة فتمر فى أربع مراحل (١) المرحـلة الابتدائية وتسمى مرحلة اللذة الذاتية Auto-erotic حيث تكون أعضاء الطفل (الفم والشرج والاعضاء التناسلية) هي مبعث لذته وهى تبتدىءمن السنة الاولى من العمر حتى الخامسة(٢) والمرحلة الثانية وتبدأ من السادسة حتى الثانية عشرة حيث يتركز كل تفكيره وحبه على جسمه(Narcissism) ومنها تنشأ الانانية وتبدأ العادة السرية .

وانى أناشد جميع الوالدين ألا يدللوا (يدلعوا) أطفالهم فى هذا العهد فيمنحونهم حبا اكثر مما يلزم فهنا تكون الطامة الكبرى على نفس هذا الطفل فتبقى صغيرة لا ترغب فى النمو لما يحوطها من حب وعطف شديد من كل جهة وتتقيد بمهد الطفولة ولو ان عمر جسمها آخذ فى

الكبر والنمو كما شاهدت كثيراً فى مرضاى . وتكثر هـذه الحالات فى الاطفال الوحيدين سواء كانوا أولاد أو بنات أو اذا كان فى العائلة ولد واحد والباقى بنات أو العكس فيكثر تدليل الوالدين له بشكل يسبب له التعاسة والشقاء فى مستقبل أيامه ولكن لو درى ذلك المربون لأقلعوا عن تدليل أطفالهم خصوصاً فى هذه المرحلة .

أما المرحلة الثالثة ففيها يتجه حب الفرد الى كل من يماثل نفسه فالولد يحب الولد والبنت تحب البنت وتسمى هذه المرحلة بحب الجنس لنفس الجنس Homosexual وتبدأ من سن الثانية عشر الى الثامنة عشر تقريباً . والمرحلة الرابعة هي التي ينتقل فيها حبه لشخص آخر عكس جنسه (Hetrosexual) ويجـدر بنا قبـل أن ندرس مراحل النمو فى الحياة التناسلية النفسية لدى الطفل أن نقول أن بعض الأشخاص ولو أنهم كبار في السن إلا أن نفوسهم وقف نموها عند إحدى هذه المراحل كالأنانية أو حب الجنس للجنس نظراً لما أصابهم فى طفولتهم من حوادث أو عبث فى أعضائهم التناسلية أو تهيج في الغريزة قبل نضوجهم جسمانياً وكل هـذه الأمثلة تثبت صراحة نقص هذا النمو التناسلى الذى أدى الى أمراضهم النفسية والعصبية .

والى أوائل هـذا القرن كانت معلوماتنا الجنسية هى كل ما يخص أعضاء الجسم فقط لا الناحية النفسية حتى بدأت مدرسة التحليل النفسي باثارة الاهتمام بهذه الناحية فدرست بطرق

منوعة ، الوضع الصحيح لهذه الغريزة . ومثل ذلك الانفعالات الشديدة كالخوف والضيق الذى تتأثر به نفس الجنين عند ولادته . ولا سيما اذا وجدت عوائق جسدية للولادة فيتعذب الطفل جداً لانفصاله عن المكان الذى كان فيه شاعرا بالراحة مع توفر كل الوسائل اللازمة لنموه، فخروجه الى عالم آخر يضطره أن يعمل لنفسه شيئاً ويحاول أن يواجه جواً آخر غير الذى كان فيه .

ولذا تكون المراحل الأولى من تكييف نفسه للعالم الجديد مليئة بحوادث هامة تقود الى نموه الخلقى ومن هنا نرى أن علماء التحليل النفسى على حق فى اصرارهم على القول بأهميــة الخمس سنين الأولى من حياة الطفل ووجوب الاهتمام بتمرينه خلالها .

ويجب أن نراعى دائماً الحقائق الآتية المتعلقة بنفسية الطفل. فيجب أن يكون الدور الذى يقوم به الأبوان في تربية الطفل لمصلحته Altruistic أى أن يهتما بتربيتــه لفائدته هو لا لتحقيق رغباتهما فحسب . ولما كانت نفس الطفل تمثــل التجارب المــاضية للجنس البشرى فضلا عن التجارب والمعرفة الشخصية ، كان عليه أن يعلم أن القوة والسيطرة لا يجب استعمالها للفائدة الشخصية كما أن حب وخدمة الغير أشرف وأرقى من محبة الذات وعلى الشخص المربى أن ويلاحظ جهة نظر الطفــل إذ أن التفاهم الصحيح بين الأبوين والطفل يسير به الى طريق الاستقلال الصحي فأخلاق الشخص عبارة عن مجموعة تجاربه الشخصية منذ ولادته ، لاسيما فى الخمس سنوات الأولى من عمره .

ويلى ذلك فى الاهمية الطريقة التى يسيطر الطفل بها على

أعماله الغريزية من مظاهر اللعب فى حياته ، فهذه لها أثر كبير فى نمو الطفل الخلقي وتخيلاته الفطرية التي وان لم يفهمها المربون إلا أنها تعطينا صورة صادقة عن كيفية تقدم نمو الطفل الجنسى . فيجب أن يتعلم الطفل فى سنى حياته الأولى أن يميز عقلياً بين عملياته الجسمية الخاصة بالافرازات وبين ماهو خاص بالتناسل حتى لايعتريه الاشمئزاز (والقرف) من العمليات التناسلية من تحويل شعوره من عمليات الافرازات (كالبراز والتبول . والمخاط الخ) الى عمليات التناسل ويجب أن نعلم أن الطفل يلزمه وقت طويل قبل أن يصل الى المستوى العقلى للبالغ ، وقبل أن يفقه الحقائق Reality ويتخلى عن طرقه الخيالية Phantasy فى الحصول على رغباته .

وسأتناول بحث كل مرحلة على حدة :—

١ ــ مرحلة الشهوة الذاتية : ان الطفل فى هــذه المرحلة ــ (وهى تشمل كما قلنا السنوات الخمسة الأولى من عمره) لا يكون أمامه غرض خاص يركز فيه عاطفة الحب ، حتى يصل الى المرحلة الثانية التى تكون فيها النفس هدفا وغرضا لعاطفة الحب . وفى المرحلة الأولى التى نحن بصددها يجد منفذاً لمظاهر نشاطه العقلى فى الغذاء والتبرز والتبول ، وبهاتين الوسيلتين يحصل على لذة نفسية فضلا عن اللذة الجسمية . اذن فهو حاصل على كل مطالب الطفولة ، وطالما كان كذلك فانه يظل هادئاً ، راضيا وترتخى أعصابه ثم ينام . أما اذا لم يفز بمطالبه فانك لتراه قلقا

متحفزاً مهتاجاً ، لا تهدأ نفسه ولا ينام . ومن مميزات هـذه المرحلة أن الطفل يشعر فيها بقوته واعتزازه بمطالبه ، فالشيء الذى يرضيه هو الحسن في نظره ، والذى يغضبه هو الردىء . ومن مميزاتها أيضاً أن الطفل يوجه جزءاً من عنايته الى جسمه ووظائف أعضائه ، ويحاول أن يبين سروره بالوسائل الفطرية ومن ذلك أنه يجد لذة فى أن يرى نفسه عارياً ، كما يجدها فى التبول أو التبرز . وهكذا يبدى اهتمامه الفطرى بطرق ومظاهر يلمسها كل من يلاحظ الأطفال مثل وضع الأصبع فى الفم أو العبث ببعض أعضائه .

وفى هذه المرحلة الابتدائية يجـد الطفل فى الاحساسات الجسدية مجالا لحصوله على اللذة . والوسائل التى يتوصل بهـا لذلك متوفرة لديه أكثر من الشاب المراهق . على أن استمراره فى ممارسة واستخدام هـذه الوسائل الطفلية يترك فى تكوينه الشخصى أثراً سيئاً وشذوذاً فى المستقبل ، ولو أنه يتغير تدريجياً أو بالحرى ينتقل تدريجياً من هـذه المرحلة الطفلية بانصرافه الى أنواع اللعب التى توجه تفكيره بعيداً عن اللذة الجنسية .

والطفل الصغير يجد لذته الأولى المتصلة بالأعضاء التناسلية فى عملية التبول . ومن هنا نفهم العلة فى أن فراشه يكون مبتلا ، وكثرة التبول هذه تعبر عن العادة السرية فى المستقبل حتى أن بعض الأطفال تبقى فيهم هـذه العادة لسن كبيرة . كما أن العبث بالأعضاء التناسلية أمر شائع ، يصدر عن الأطفال فى هـذه

المرحلة غريزياً للحصول على نوع من اللذة العضوية ، ويمكن أن يبطل وتخمد حدته نهائياً إذا لم ترتبط به أنواع العقوبات المنزلية التى أحذر الآباء من توقيعها على الأطفال اذا هم لاحظوا عليهم حركات العبث بأعضائهم التناسلية. أما اذا شاءوا أن يوقفوها فهذا لا يتم بالعقوبات الخاطئة بل بوسائل التهذيب الراقية كما سنبين فيا بعد ، مع استخدام الرفق والأناة .

هذا وليذكر المربون أن عمليتى التغذية عند الاطفال والتبرز لها اتصال كبير بتكوين طباعهم . وهنا قد تبدو على الطفل ميول الطاعة واحترام الآداب المرعية والمعاملة الحسنة أو تبدو عليه من جهة أخرى صفة العناد والخصام والكراهية ويتبع هذا الاختلاف نوع التهذيب أو الارشاد الذى يؤديه ذوو الطفل ومربوه . لذلك يحسن لفت نظر أولياء أمره الى أخذه باللطف والرفق مع التهذيب المعقول البسيط .

٢ ـ مرحلة الأنانية (Narcissistic Stage) هذه مرحلة حب الذات وهى الفترة ما بين السادسة والثانية عشرة . ومع أن حب الذات هو أصل كل نوع من أنواع الحب ، إلا أنه كلما نما الطفل وكبر، كلما تعدل اتجاه حبه ، فيحب خدمة الآخرين وتقل بذلك أنانيته . أما الشخص الذى يقتصر على حب ذاته والتفكير فى مصالحه دون الآخرين ، فهو شخص ضعيف النمو النفسى.

والأنانية التى نشير اليها هي تلك الروح التى تقود صاحبها الى الامعان فى العناية بشؤونه فحسب ، دون أن يكون أمامه

غرض آخر يصح أن يمنحه شيئاً من حبه . ولعل القول المأثور «أنا والطوفان بعدى» هو أصدق شعار أو عنوان لهذه المرحلة . ومن مظاهر هذه الأنانية الطفلية أن ترى صاحبها يميل الى تغليب رأيه على رأى غيره واعجابه بنفسه ، وميله الى حب الظهور والرغبة الجامحة للحصول على ثناء الآخرين . مع أن ذلك من أوليات صفات الطفولة ، على أن بقاء هذه الصفات حتى دور المراهقة ، يعطل نموه التناسلي النفسى. وقلت أن الأنانية تتخذ لظهورها أشكالا مختلفة : فقد ترى أحدهم يعنى بمظهر الوجه ، وآخر بحسن الهندام، فيلجأ كلاهما الى التزين والاعجاب بنفسه غير أن التربية الصالحة القويمة تخفف من هذه الخيلاء ، وتعين صاحبها على التقليل من شؤون حب الذات لان الشخص الذى يذهب الى أبعد حدودها لا ينتظر منه فى دور الرجولة أن يكون رجل تضحية إزاء الآخرين .

ونحن نأخذ عادة فى تلقين أولادنا المثل العليا الاجتماعية فى الفترة ما بين الرابعة والعاشرة (وهي التى نطلق عليها اصطلاحا اسم «فترة الهدوء الكامن») ، ونعلمهم أن يتجنبوا أعمال وحركات الأنانية غير المشروعة لا سيما ما كان متصلا بالقوى الغريزية . وفى هذه الفترة نشاهد فى الطفل ـ الى حد ما الخجل من حركات الشهوة الذاتية ، والاشمئزاز من كل ماله مساس بالافرازات ، والتقزز بصفة عامة من الاعضاء التناسلية واعضاء الافراز . ويتطور هذا الاشمئزاز فى الكبر الى أعراض رمزية أخرى ، اما اذا كان مستوى حياة الأسرة منحطا فان فترة

« الهدوء الكامن » تنعدم كلية فى الاطفال الذين يوقعهم حظهم فى مثل تلك الأسر الوضيعة ، وتظل عادات اللذة الذاتية ملازمة للطفل - فى حين ان الدافع الجنسى يستمر فى الظهور والنمو ويصل الى درجة الحدة والشدة فى دور البلوغ . غير ان الحواجز الاجتماعية والادبية ، والروادع الاخلاقيه التى تختلف باختلاف مستوى الاسر - تنظم وتضبط تلك الدوافع ، أو تسمو بالنشاط التناسلى الى غايات معقولة مقبولة كالألعاب الرياضية والرغبة الملحة فى الثقافة

وعند الاقتراب من دور البلوغ يتجه الدافع الجنسي من حب الجنس لنفس الجنس الى حب الجنس للجنس الآخر . ولما كانت الروادع السابقة لا تفلح فى كبح جماح هذه الدوافع الشهوانية فعند ذلك يغلب استعمال العادة السرية وخصوصا فى الاولاد كما هو الشائع .

وفى هذه المرحلة يتخيل الأولاد والبنات أخيلة مختلفة عن الخواص التناسلية التى تميز كل فريق عن الأخر ، ولهذه الأخيلة تأثير على نمو الأخلاق . فالبنت مثلا تعرف أن الثديين هما اوضح فارق بينها وبين الولد ، فهى لذلك تحاول أن تبدو جذابة من هذه الناحية . كما أن الأطفال الذكور يتخيلون أن أعضاء البنت التناسلية لم تنموا بعد وتتخذ شكل أعضائهم (الذكر) فاذا ما تصوروا أن عضوها التناسلي قد قطع (كعقاب ما) يعتريهم الخوف من قطع أعضائهم هم فى يوم ما لأن كثيراً من الأمهات الجاهلات وغيرهن يهددن أطفالهن بقطع عضوه اذا هو لم يستمع

الكلامين ، ومن ثم تنشأ حالة نفسية نسميها فى الطب النفسى « عقدة الخصى *Castration Complex* » وهذه تلعب دوراً هاماً فى كثير من القلق والمخاوف . والبنت فى تخيلاتها تتوهم أنها حرمت من الخواص التى تميز الولد عنها وهو عدم وجود عضو ذكر لها *«Envy Penis»* فيتولد فى نفسها الاحساس بالغيظ والحسد والحقد عليه ، كما أن الولد من الناحية الأخرى يتيه فى نفسه على البنت إذ يشعر بأنه يفضلها لوجود هذه المميزات لديه .

هذه ملاحظات صريحة لست أبغي من ورائها إلا أن ألفت الأنظار الى أن مثل هذه التخيلات موجودة فعلا فى الأطفال كما ظهر لى فى تحليل كثير من المرضى وتترك فى النفس إحساساً بعدم الرضى ، وتولد فى مقتبل العمر جمود الاحساس وبرود العواطف والعقم عند المرأة والعنة عند الرجل.

٣ ـ مرحلة حب الجنس لنفس الجنس: (*Homosexual Stage*)

يلى ذلك المرحلة الثالثة ونسميها فى الطب النفسى « مرحلة حب الجنس للجنس » ـ أى أن الفتى يحب زميله الفتى ، والفتاة تحب زميلتها الفتاة . وهذه المرحلة تبدأ من السن الثامنة وتظل حتى السادسة عشرة . على أن الكراهية التى يحملها كل فريق من الفريقين فى صميم نفسه فى هذه المرحلة لبعض اشخاص من فريقه بحكم الغير يجب تعديلها ، وذلك بأن يتولى المرشدون قيادة كل فريق وتوجيهه الى منافذ صالحة ، فتحل المنافسة الشريفة والصداقة والتعاون فى الكبر محل هذا الشعور وإلا فان دوام هذه الروح يقوض الهيئة الاجتماعية من أساسها ، ولعلنا لا ننكر النجاح الملموس الذى عاد على الهيئة

الاجتماعية فى هذا المضمار من قيام نوادى الشبان، وجمعيات الفتيات، ومسابقات الألعاب، والتنافس السياسى والحزبي، والتنافس التجارى والصناعى الشريف، وسائر أنواع الاجتماعات النبيلة الغاية التي أدت الى استبدال هذه الكراهية بصداقات موفقة متينة العرى.

وفى هذه المرحلة تقع بين الأحداث حوادث شهوانية هادئة وان كانت بكثرة لاتخطر بالبال. فيرون أنفسهم بحاجة الى نصح والديهم، يصارحونهم بأسرارهم. لكن ما أندر الأمهات، بل والآباء، الذين يعنون بهذا الأمر العناية المرجوة!! فاما انهم لايصدقون وقوع تلك الحوادث، واما انهم يتجاهلونها، مع أنه فى هذه المرحلة بالذات يكون الطفل مخلصاً لأمه التى تعطف وتشفق عليه والتى تستطيع أن تقوده وتنصحه باخلاص وصدق.

على أن كثيراً من الأحداث يقفون عند هذه المرحلة ولا يريدون أن يتعدوها الى مرحلة حب الجنس الآخر — وهؤلاء من الكثرة بدرجة لايتصورها الناس. فاذا ما تزوج بعضهم فانه لايهنأ فى الحياة الزوجية، إذ يتميز زواجهم بعدم التوفيق والتجانس ونكد العيش باستمرار. فالنساء اللواتى من هذا الصنف يصبحن بعد الزواج جامدات الاحساس يخلقن كل صعوبة فى سبيل محاولة التوفيق العائلي، أما الرجال فيشكون من العنة أو سرعة القذف.

وليذكر الآباء والمربون أن حب الجنس لنفس الجنس ليس صحيا حتى ولو فى دور البلوغ، ويجب أن يفهم الأحداث

حقيقتها وكيف أنها جزء من مراحل نموهم التناسلى . وأنه فوق ذلك يجب ألا تقف فى وجه نموهم للمرحلة الرابعة - مرحلة التكامل فى الحياة التناسلية النفسية - فالشاب المراهق الذى يود الحصول على الاشباع الجنسى من نفس الجنس ، هو شاب لم تنضج فيه حياة الحب الصحيح - ولن يحمل فيما بعد بين جنبيه الشخصية القوية الصحيحة . والمرأة التى تقف عند هذه المرحلة ولا تتخطاها الى المرحلة الكاملة ، تعتبر الرجل فظاً منحطاً ، وتعتبر المسائل التناسلية تبذلا وسفالة. كذلك الفتاة المسترجلة والشاب المخنث لم يصلا الى غاية التكامل الجنسى كما أشرنا الى ذلك سابقاً .

وقد اتفق أعلام التربية على أن سبب وقوف الشاب عند هذه المرحلة دون أن يتعداها الى مرحلة الكمال الجنسى ، راجع الى التربية الخاطئة لا الى الوراثة . وقد يكون ذلك راجعاً فى كثير من الحالات الى أن الفتاة أو الشاب لم يسبق له أن عرف من الجنس الآخر إلا أفراداً قليلين ليس فيهم ما يشوقه اليهم أو يستفز عواطفه نحوهم ، ودور المراهقة هو دور العاطفة الملتهبة التى لا تعرف الاستقرار إلا فى القليل النادر، وفى هذا الدور تلعب الحياة التناسلية أهم دور فى كيان الشاب .

وليس من شك فى أن الفتاة أو الشاب الذى يحاول أن يحصل على اشباعه الجنسى فى شخص من جنسه فى الكبر، انما يقدم على جريمة فاضحة يعاقب عليها قانوناً ، فضلا عن كونها جريمة فى حق الهيئة الاجتماعية. ولكن فى الواقع ان ذلك مرض نفسى خارج عن ارادة

الشخص يعزى الى نقص فى التربية العائلية التى لم تستطع أن تنظم قيادة الشباب ، كما تعزى الى روح الرياء وعدم الصراحة التى يظهرها المربون بالنسبة لعلامات مراحل النمو التناسلي النفسى المختلفة فى الشباب . والحق أنها مشكلة استعصى درسها على الأعلام المبرزين . فالحب قديم أزلي ، يحصى عمره بالمئين والآلاف من السنين . وفي مختلف تطوراته من الصور المبكرة الفطرية الى صور عهد الكبر قد أقام صرحاً معقداً لم نستطع أن نفهمه ونستسيغه إلا مذ كشف لنا العلامة سيجموند فرويد عن طريقة أوصلتنا الى فهم حقيقة اللاشعور . ففهمنا من نتائج بحثه أن الأحداث الذين يقفون عند مرحلة حب الجنس لنفس الجنس يسخرون من « حب الجنس الآخر » . وان كثيراً من هؤلاء لا يهتمون بالنسل إلا قليلا * .

٤ ــ مرحلة حب الجنس الآخر (*Heterosexual Stage*)

وأخيراً تأتى المرحلة الرابعة « مرحلة حب الجنس الآخر » ، وهى تبدأ فى سن السادسة عشرة وتظل حتى الأربعين . فاذا وجد انسان وصل الى نهاية هذه المرحلة دون أن تتكامل فيه قوة التناسل كان عاجزاً فاشلا .

على أن الاهتمام بالجنس الآخر غريزة تتمشى مع نمو المراهقة كما أن الرغبة فى الحصول على الحبيب من الجنس الآخر دليل

---

* يحسن قراءة مؤلف الاستاذ فرويد

Three Contributions to the Theory of Sex.

على نضوج القوة العقلية السليمة . والهيئة الاجتماعية ذاتها تساعد على تنمية حب الجنس الآخر ضماناً لعمران الكون ورغبة فى مجانبة التوقف عند حدود مراحل النمو الابتدائية . وكلما تقدم الفرد كلما تغيرت وسمت وجهة نظره نحو الجاذبية الجنسية وترك اعمال الطفوله التى كان يلتذ منها .

اما اذا تشبث بهذه الميول والملاذ الأولية فانه لايصل الى دور تحول شدة اللذة فى الأعضاء التناسلية ، فينشأ عن ذلك المظاهر العصبية ، لأن التوقف عند المراحل الأولية مدعاة لعدم الكفاية التناسلية الصحيحة . ومتى توقفت الحساسية واللذة عن التنفيس بواسطة الأعضاء التناسلية فان أعضاء المناطق الحساسة الأخرى تتهيج أكثر من العادة . فى حين أن النمو من مرحلة الى أخرى حتى دور حب الجنس الآخر ، دليل على أن الأعضاء التناسلية تسمو على أعضاء المناطق المذكورة (الفم والشرج) .

والناس ليسوا على قياس واحد من حيث فهم معنى الحياة ومعنى اللذه الجنسية . فلكل انسان طريقته الخاصة فى التعبير عن رغباته . وما الطبائع والأمزجة سوى تعبيرات لهذه الرغبات باشكال مختلفة .

فهذا شاب تبرز ميوله التناسلية مبكرة وبشدة ، لذلك يلزم أن يحاط بعناية كبرى . وهذا شاب آخر لا يظهر عليه الحنين والميول المنتظرة لمطالب المراهقة فيجب معالجته . ومعظم البنات ـ بسبب التكتم والحشمة الشديدة ـ ليست لديهن المعرفة الحقة بالزواج والأمومة ، اللهم إلا خرافات غامضة .

وأدلة التهيج الشهوانى تظهر عند الأحداث بشكل محاولة اختلاس النظر ، أو فى احمرار الخدين خجلا واستحياءا ، أو فى تلعثم الكلام ، وحدة الطبع ، وعدم الاستقرار ، والأرق ، والمخاوف الليلية (الكابوس) والتبول بكثرة فى المساء ، ووضع الأصبع فى الفم ، والحياء ، والوجل، وكثرة التفكير والتساؤل.

اما الاطفال الذين يصلون الى دور البلوغ فيبدو عليهم الارتباك الواضح ، ويتوقفون فجأة عن مواصلة الدرس ، وينصرفون عن التعليم ، ويعجزون عن تركيز أفكارهم ، كما قد يصبحون ماكرين ، ينفرون من الهيئة الاجتماعية .

ولعلني لست بحاجة إلى القول ان احد هذه الاعراض بمفرده لا ينم عن وجود تهيج شهواني فى الشباب ان لم يؤكده اعراض وعوامل أخرى .

فحيث تشتد البواعث الجنسية ، دون أن يحصل الشاب على تنفيس أدبى لها ويستنفذ فيها القوة التناسلية تظهر على الشخص بوادر التكاسل والغباوة ولكن يقظة الوالدين وفهمهم حقائق هذه الاعراض تدعوهم إلى الأخذ بيد ولدهم بكل رفق وحكمة وتحويل ميوله التي تجيش فى نفسه الى مسالك أخرى مفيدة وبذا يحمونه من النتائج الضارة . هذا وان هدوء نفس الشابه يتوقف على مقدرته فى تفهم حقيقة هذه الميول الغريزية .

والفضل فى الأفكار السديدة عن حياة الطفل التناسلية يعود الى الدراسات التى اظهرتها مدرسة التحليل النفسى . ومع ما كاله الناقدون من نقد غير نزيه للملاحظات والنتائج المنطقية

التى وصلت اليها هذه المدرسة ـ وخصوصاً من جانب أولئك الذى يجهلون تعاليمها وأساليبها كل الجهل ـ إلا أن الطب النفسى مدين بالكثير لأولئك العاملين فى هذا الميدان ، وأخص بالذكر المجاهدين فى تفسير وتعليل الرموز والكنايات النفسية ويرجع جانب كبير من هـذه الانتقادات كما قلنا ، الى جهل أسرار التحليل النفسى . وانا لنضرب صفحاً عن مناقشة تلك الانتقادات على اختلافها إذ لا دخل لها فى مسائل الذوق الجميل والآداب السامية . أما التحليل النفسى فانه يكشف لنا عن مكنونات النفس ورغباتها بشكلها الفطرى بصرف النظر عن الاعتبارات الذوقية والأخلاقية .

الفصل الخامس

العادة السرية ونظرة الطب النفسى اليها

تطلق «العادة السرية» على كل الوسائل التى يستخدمها الفرد بنفسه للحصول على الاحساس الشهوانى المحبوب . وهذا الاحساس يصدر عن مناطق تعرف فى الطب النفسانى باسم أعضاء حساسة قابلة للتهيج » . (Erogenetic Zones)

ويجدر بنا قبل التحدث عن هذا الموضوع بالتفصيل ، أن نذكر حقيقتين : أولاهما أنه ليس من الضرورى أن تكون ممارسة هذه العادة قاصرة على استخدام الأعضاء التناسلية فقط كما هو الشائع عند ذكر هذا الاسم ، فهنالك طرق مختلفة سنشير اليها فيما بعد . والحقيقة الثانية أنه ليس من الضرورى أن تكون الغاية من ممارستها قاصرة على حصول الشبق ، فان هذا لا ينطبق على الأطفال أو النساء ـ وبالأخص الغير متزوجات.

وقد ذاع بين الناس ، وفى جملتهم كثير من الأطباء ، أن «العادة السرية» تؤدى الى هدم صحة الفرد وقواه العقلية . غير أن علماء التربية قد قرروا حديثاً أن العملية فى حد ذاتها ليست السبب فى هذه النتائج، بل أن المؤثر الحقيقي هو الانفعالات النفسية

التي تعقب العملية نفسها وتأثيرها على الشعور والأخلاق . على انه إذا كان من الطبعي أن ينظر الطبيب الى هذا الموضوع بالعين السيكولوجية الفسيولوجية، إلا انه لا يصح له أن يتجاهل الناحية الأدبية وهي الجزء المكمل للموضوع .

وتتفاوت هذه العادة في الدرجة عند من يمارسونها. فهناك من يمارسها بصفة عارضة ، وهناك من يذهب الى أبعد حدود الافراط فيها. والعادة في كلتا الحالتين تصحبها تخيلات تملأ ذهن صاحبها فتقوده الى ممارسة تلك العملية .

على أن الافراط ليس له حدود يعرف بها ، بل هو اصطلاح نسبي ، إذ أن ما نعتبره اعتدالا من أحد الأشخاص قد يعتبر إفراطا عند غيره ، لأن تقدير النتائج قائم على شخصية المريض من حيث تكوينه الخلقي والعقلي والأدبي. كما أنه ليس من الضروري أن يكون الأشخاص الذين يدعون أنهم لم يمارسوا هذه العادة مطلقاً أصح جسماً من المعتدلين في ممارستها كما يقرر ذلك الاستاذ Moll هذا وقد تبين للقارىء ضمناً من الصفحات السابقة أن عند الأطفال نوعا من اللذة سميناه حركة اللذة الذاتية ،(وقد سبق الاشارة اليه) يمارسه الطفل قبل دور البلوغ. وهذا النوع يختلف طبعاً عن استمناء البالغ المدرك من الوجهة العلمية . وأرى المجال أضيق من أن يحتمل مناقشة كل اختلاف من هذا النوع لكن لا بأس من شرح بعض النقط الهامة في حينها.

وذلك لأن معاهد الطب لم تكن تعنى لسوء الحظ بدراسة

موضوع «العاده السرية» دراسة علمية ـ وكان من أثر ذلك أن خريجيها لم تكن لديهم المعلومات الكافية عنها .

على أنه من المهم جداً أن ينظر الأطباء الى هذا الموضوع كحقيقة علمية ، وأن يتجردوا فى دراسته عن مشاعرهم الخاصة لأن إقحام المشاعر يحول دون الفهم الصحيح للنقط التى يدور حولها البحث ويجب أن يكون لدى الطبيب المعالج فكرة كاملة عن نظرة المريض لهذه العادة .

ولعل معظم المعلومات الخاطئة التى عرفها الناس عن «العادة السرية» والتى لا يزال بعضها كامناً فى ثنايا بعض الكتب ، يرجع الى كتابات ناقصة سيئة ، كتبت فى الفترة ما بين سنة ١٧٦٠ وسنة ١٨٩٠ ميلادية . فقد تطرف بعض الكتاب مثل

Tissot's De L'Onanisme, Lallemand, Simon and Leitner

وأشاروا الى ما أطلق عليه «أمراض» ناشئة عن ممارسة هذه العادة . وظلت آراؤهم مؤثرة حتى على الأطباء أنفسهم إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر حين أخذ العلماء يدرسون هذا الموضوع بطريقة علمية بحتة ، ويبحثون فى الحقائق المتعلقة بهذه العادة بحثاً دقيقاً منظماً . ويرجع الفضل فى هذا التغيير الى فطاحل العلماء أمثال

Erb, Fürbringer, Jones, Stanley Hall, Freud, Reich.

وغيرهم ممن جاءوا على أثرهم .

بعض الاعتبارات النفسية

للعادة السرية

ولكى يتسنى لنا أن نفهم حقيقة العادة السرية كما يستخدمها الأحداث والبالغون ، يجب أن تكون لدينا فكرة عن الدافع الجنسى وعن بدء مظاهره فى الطفل . فهو الذى يقوده إلى ممارسة تلك العادة . فالطفل يمارسها دون أن تحوطه أية تخيلات شهوانية ، اذ هو يبغى من ورائها مجرد الحصول على الاحساس باللذة . ولما كان الطفل يوجه احساساته عادة الى الاعضاء التى توفر له لذة فاننا نراه ينغمس فى « العادة السرية » وهو يجهل إن كان عمله خطأ أم صواباً .

غير ان معظم الآباء يجهلون وجود هذه العادة فى الأطفال . وقد أيدت مشاهدات بعض العلماء مثل White & Kempf ان أغلب الاطفال يمارسون هذه العادة فى الفترة ما بين الثانية والسادسة من العمر . ذلك لأن المناطق الحساسة (كالفم والشرج والاعضاء التناسلية) تكون ذات أثر لدى الطفل قبل سن السادسة لأنها مبعث لذة له . وقد سبق الأشارة الى عملية التبول كمثال لهذه الحقيقة . ولكن الألتجاء الى العادة السرية فيما بعد ، دليل على تفوق الأعضاء التناسلية .

والطفل تحت تأثير حب الاستطلاع يهتم اهتماماً بالغاً بأعضائه التناسلية ووظائفها . وهذه حقيقة خافية على معظم الآباء الذين يجهلون (بكل أسف) الدور الخطير الذى تلعبه الحياة التناسلية فى خيال

الطفل على الرغم من كل محاولة يقوم بها أولئك الآباء لكبت رغبته في استطلاع من هذه الناحية ، لذلك كان لزاما على المربين أن يفهموا شيئاً صحيحاً عن عناصر الحياة التناسلية النفسية فى أطفالهم ، وأنه يمكن ملاحظة أن لألعابهم ارتباطا كبيرا بدوافعهم التناسلية .

دور البلوغ

هذا الدور هو المرحلة النهائية للنضوج الجسدى إذ يصبح الجسم مخصباً بيولوجياً . ولما كان الردع والنهى لا يجديان في هذه المرحلة ، كما أن العادة السرية (باعتبارها تنفيساً لقوى الفرد الكامنة) تكون قد تدرجت من حالة الهدوء الكامن الى حالة الظهور العلنى ، لذلك يجب تنظيم الدافع الجنسى فى هذا الدور واخضاعه لقوة الادراك والمثل الأدبية العليا .

على أنه ثابت لدينا أن النشاط الجنسى لا يعدم مجالا للظهور ، إذ يستطيع الفرد أن يصرفه وينفس عنه فى الألعاب الرياضية ، والسير على الأقدام والرقص ، و لعب كرة السلة ، والتنس وغير ذلك .

ويتنبه الشاب لأول مرة فى هذا الدور عادة الى شدة حساسية الأعضاء التناسلية باعتبارها مصدر لذته . وقد يعرف ذلك فى بادىء الأمر عن طريق ممارسة العادة السرية . لذلك رأينا بعض الكتاب يعتبرونها كغاية سيكولوجية لا بد منها فى هذه المرحلة . على اننا اذا شئنا أن نعرف الطابع الخاص الذى تنطبع به هذه العادة فى أحد الشبان ، وهل هو طابع فسيولوجي أو باثولوجى ، يتعين علينا أن نفهم الباعث الذى يدفعه اليها : وهل هو باعث طفلي أو

ناشىء عن النشاط الوافر الذى يصحب البلوغ . على أن ممارسة العادة فى هذه المرحلة غير ضارة بصفة عامة ، إلا اذا كان الشاب او الفتاة يركز كل منهما حبه على جسده Narcissistic، فلا يعنى حينئذ بالحصول على حب شخص آخر.

هذا والباعث الجنسى يصدر عن مراكز مختلفة، فقد يصدر عن هرمونات الغدد الصماء وعن العضلات ، ويقول البعض أنه قد يصدر عن توتر فى الحويصلات المنوية ــ وهو قول صحيح نسبياً . على أنه ليس من الضرورى أن ينشأ الدافع التناسلى من الخليات الحية التناسلية فقط، اذ هو فوق كل شىء عملية من عمليات الجسم الحيوية . فالخصى الذى فقد المقدرة على التلقيح ، لا يعدم الرغبة التناسلية : مثله فى ذلك مثل الشخص الذى خلق ولا معدة له ، فانه يحس الجوع كما يحسه الشخص الكامل التكوين

فالقول بان الرجل الخصى (الاغا) ليس عنده رغبة جنسية لا يؤيده الواقع او العلم .

جـ ـ <u>المؤثرات الحافزة إلى ممارسة العادة</u> : فهم القارىء مما سبق أنه ليس من الضرورى أن تكون منطقة هذه العادة فى الأعضاء التناسلية فحسب . فهناك المناطق الحساسة الأخرى القابلة للتهيج وهذه عادة تكون عند المرأة أكثر منها عند الرجل وهناك مؤثر آخر هو التخيلات فان الامعان فى هذه التخيلات الشهوانية ــ وهو أمر شائع بين المراهقين ــ يهيج الى درجة الانتصاب دون أن يتعداها الى درجة الحصول على الشبق .

والعملية سهلة عند الشاب اذ هى تتوقف على تهيج حشفة

القضيب* ، لكنها ليست سهلة عند الفتاة والمرأة. فهى تتوقف عندها غالباعلى البظر ثم الشفرتين الصغيرتين. وبعض الفتيات قد يدخلن اجساماً غريبة في المهبل والقناة البولية ــ وفضلا عن ذلك فان هناك بعض الفتيات من يجدن لذة كبيرة فى ممارسة عملية العادة السرية فى الثدى أو الشرج وغير ذلك .

أما الطريقة العامة عند أغلب النساء فهى استخدام اليد . أما النساء ذوات الذوق الجميل ، واللواتى يأنفن من ملامسة الغشاء المخاطي مباشرة فانهن يمارسن هذه العادة بواسطة تحريك الفخذين أو حك الأعضاء التناسلية الخارجية بشيء ما . وقد ينكر عادة كثير من الوالدين وجود العادة السرية فى اطفالهم لزعمهم انهم لا يستعملون ايديهم فى العملية مع انهم لا يجحدون عملية تحريك الفخذين ولا يعطون أية اهمية لهذا العمل مع أنه لا فرق بينهما فى الواقع .

وقد ينصح البعض الاتصال الجنسى الغير شرعى (المومسات) لابطال العادة السرية ولكن هذه التجربة غير ناجحة فضلا عن الاخطار التى قد يتعرض لها الشباب اذا هو استمع لهذه النصيحة، وزيادة على ذلك فالاتصال الجنسى بدون الشعور بالحب يشبه العادة السرية.

والاخصائيون فى الأمراض العقلية يلاحظون ان المتوهين يجدون لذة عظيمة فى خيالاتهم المثيرة للشهوة التى تعبر عن رغباتهم المكبوته .

---

* لا داعى لذكر جميع العمليات الشاذة فى العاده السرية

وسائل الاستعاضة عن العادة

ان محاولة الاستعاضة عن تنفيس الغريزة التناسلية المحرمة أمر شائع فى الأطفال وفى الأشخاص العصبيين . وأنواع هذه الاستعاضة هى عبارة عن الوسائل الغير منتقده التى تعطى اللذة فى النفس

فالطفل عند فطامه يستعيض عن لذة التهيج الفمى فى مس حلمة الثديين، بالاستمرار فى امتصاص الابهام ، واذا حيل بينه وبين الاستمناء عند البلوغ فانه يعود الى وضع أصبعه فى الفم وترى بعض الأطفال مغرماً بالعض على الاظافر ، عوضا عن عض الآخرين . (وهو أحد الدوافع الغريزية)

وقد أشار أحد العلماء Von Hugh Helmuth الى أن عملية امتصاص الابهام عند الاطفال يصحبها لذة ثم يعقبها هدوء وارتخاء فى الجسد . إذ أنها في الواقع تعطى الطفل نوعاً من اللذة الحسية ، حتى أن كثيراً من الاشخاص العصبيين لا يقلعون عن هذه العملية ، أو ما يعادلها ، حتى وهم شبان بالغون . وهنالك علاوة على امتصاص الابهام حركات أخرى رمزية مثل الشغف بالسجاير أو السيجار والعض على الشفتين باستمرار .

ويحسن بنا ان نؤكد مرة أخرى ان الطفل يجد اللذه فى نفسه (فى جسده هو) وليس فى شخص آخر كما هو الحال فى الكبير .

وأشرنا فيما مضى الى شغف الأطفال بأعضاء الافراز وما تفرزه . وقد لوحظ لنا أن هذا الشغف يستمر فيهم مع بعض التغير . فاذا حاولنا أن نبعد الطفل عن مثل هذه الملاذ الأولية

فليكن نصب أعيننا أولا أن نقدم له عوض ذلك اشياء أخرى يلتذ منها ، ولنحذر دائما الروادع والنواهى الشديدة .

ومن الاطفال من يحب امتصاص الحلوى (الحلويات) — وهؤلاء أفضل بكثير ممن يمصون أصابع أيديهم ولا يجب ضربهم او عقابهم لهذه العمليات فانها خارجة عن ارادتهم . ولقد ظهر لنا ان معظم الجناة والمجرمين كان معظم حقدهم على الهيئة الاجتماعية راجعا الى القسوة والضرب الشديد فى طفولتهم .

هذا وقد يحدث ابتلال الفراش (الاستحلام) فى دور المراهقة ويكون هذا غالباً بديلا عن الشبق الذى يتم بممارسة العادة السرية وإن فى الحلم الذى يراه الشاب فى الليلة التى يبتل فيها فراشه لدليلا على هذه الحقيقة .

ويعتقد معظم أطباء النفس أن الغشاء المخاطى للفم ، والشرج والقناة البولية ، حساس ويعطى لذة وهو يستخدم لذلك كثيراً فى التهييج الجنسى .

اما حساسية الجلد فتظهر باشكال متنوعة ، كحركات الاهتزاز المنتظم — فى اليد او الرجل مثلا وهي تحل محل الرغبة المكبوتة وكذلك الاهتزاز المستمر الذى نلاحظه على الشخص الأبله فهو تعبير عن العادة . كما يجد كثير من الأفراد شعوراً باللذة في الحقن الشرجية ، وتدليك المستقيم عند الرجل او البروستاته ، وغسل المهبل عند المرأة ، وتمشيط الشعر لفترة طويلة ، وتشبيك الأيدى ، والتدليك بصفة عامة . ومن الناحية الأخرى نجد بعض الأفراد يقلع عن العادة السرية ويستعيض عنها بمحاولة اظهار جزء كبير من جسمه ، أو بأى محاولة أخرى من هذا القبيل . (Exhibitionism)

الفصل السادس

اسباب العادة السرية — انتشار استعمالها

١ – (أولا) أسبابها :

لعل القارىء يذكر أنني أشرت فيما سلف الى بعض الأسباب النفسية التي يعزى اليها استعمال هذه العادة . وفي رأيي أن هذه الحالات النفسية هي أهم العوامل مع ثبوت وجود غيرها .

فاذا ما عرضت لنا احدى الحالات التي يكون منشؤها اكثر من عامل واحد ، فليس من الصواب ان نقصر البحث في عامل دون آخر . فللاطفال مثلا عادات كثيرة سيئة ، فان شئنا أن ندرس تلك الحالات المنوعة كان علينا أن نبحث العادات التي قد تساعد على بقاء « العادة السرية » كما يجب أن تكون لدينا فكرة صالحة عن المركز الاجتماعي للمريض الذى نحاول علاجه من هذه العادة . على أن هناك عوامل أخرى موضعية تؤثر في بقاء تلك العادة ، ونقول موضعية لانه من السهل ازالتها بينما تبقي العادة على حالها ما دام العامل النفسى باقياً .

وقد اختلفت آراء الباحثين في أسباب هذه العادة ونتائجها .

فبينما نرى الكتاب من رجال العصور القديمة يعتقدون النورستانيا سببا من تلك الأسباب ، نرى بعض كتاب اليوم يقولون أن النورستانيا ما هى إلا نتيجة الافراط فى هذه العادة . من هذا نستنتج أن الافراط المستديم يكون عارضاً من أعراض مرض نفسى وليس سبباً له .

وما دامت معلوماتنا عن الهرمونات لاتزال فى طور النمو ، فلا يسعنا أن نعرف بصفة قاطعة أثرها على الدافع الجنسى . ولئن كانت بلا شك ذات أهمية من حيث تحديد طبيعة الجنسية بيولوجياً ، غير أن بحثنا قاصر هنا على أحد مظاهر الدافع الجنسى لا الدافع نفسه

وقد يتعلم الأطفال هذه العادة من زملائهم ، أو من الكبار الفاسدى الأخلاق ، لكنها فى الأغلب تصدر من تلقاء ذاتها فى فترة الهدوء الكامن التى تحدثنا عنها . على أن تركيب هذه العادة (فسيولوجياً) ليس في ذاته سهلا ، فهو قائم على مؤثرات خفية ومؤثرات ظاهرة ، فقد ذكر أحد الكتاب أن البنت فى دور البلوغ تتعلم هذه العادة عن طريق المحادثة والاختلاط . كما أن كثيرين من الكتاب يحذر من (الدلع) التدليل المبالغ فيه ، إذ أن وقعه على بعض الأطفال ليس مستحسناً حتى ولو كان عن عن قصد حسن برىء .

وبعض الصور المتحركة والمجلات والكتب بما تبثه فى الطفل من التخيلات الشهوانية تعتبر عامل آخر يدفع الى ممارسة

هذه العاده . ولو أن بعض الكتاب يستثنون المؤلفات التى تعالج المسائل التناسلية بطريقة جديه .

على ان بعض المرضى – وبصفة خاصة النساء – يمارسون العادة السرية دون أن يكون الدافع اليها شيئا من الهواجس الشهوانيه – كما ان كثيرين يجهلون العنصر التناسلى فى هذه العملية . وهم انما يمارسونها لانهم يجدون فيها مايخفف من حدة الارق او التوتر العصبي ، او ما يخلصهم من حالات ذهنية مؤلمة ، او من القلق وضيق الخلق والسآمة

والى جانب هؤلاء يوجد فريق أخر يعتقد انه ما دام «المنى» نوعا من الافرازات التى يجب التخلص منها كضرورة فسيولوجية لذلك تراهم يلجأون الي العادة السرية للوصول الى غايتهم

انتشار استعمالها :

اشرت فيما مضى الى ذيوعها فى احدى مراحل الحداثة وهنا اتكلم عن انتشارها عمليا بين الشبان الذكور المراهقين ردحا من الزمن . وفى هذا العهد نجد ان معظم الشبان تدخن والقليل منهم من لا يدخن التبغ لكن بخصوص العادة السرية فالجميع مارسوها فى وقت ما . ولئن وجد استثناء نادر لهذه القاعدة فان من الجهل انكار انتشارها وان كان من الشبان من ينكر ذلك امام شخص مجرد من الرفق والشفقة عليه .

وذلك لأ نه يخشى – اذا هو جاهر بهذه الحقيقة – أن يفقد الاحترام

الاجتماعي . ولذا تراه يلجأ الى المراوغة حتى لا يقر بممارسة هذه العادة . والفتاة تنكرها غالباً الا اذا آنست من الشخص الذى يواجهها رفقاً وعطفاً ، فتبوح بممارستها تلك العادة ولو انها تبررها بدعوى التخلص من (أكلان) موضعى .

ولكن نظراً لأن البنات يبقين دائماً فى المنزل محوطات بكثير من التحفظ ، فهن لذلك غير معرضات لأنواع الاغراء الذى يؤدى الى انتشار العادة بينهن مثل الأولاد . وذلك فضلا عن أن عوامل الكبت لمظاهر الدافع الجنسى في البنت أقوى منها فى الولد ويرجع هذا الكبت الى اعتبارات بيولوجية تتمشى مع مبدأ العفة التى تؤيدها التعاليم الدينية والأدبية .

وهذه العادة منتشرة بين الشبان الذين يميلون الى العزلة والذين لا يجدون منفسا فى نواحي النشاط الاجتماعى . كما انها منتشرة بين البعيدين عن الأوساط الاجتماعية كالمسجونين والجند، وكغيرهم من المتعذر عليهم الاختلاط بالجنس الآخر.

وقد اختلفت الآراء فى نسبة انتشار العادة السرية بين النساء والرجال . فيرى بعض العلماء (١) أنها اكثر انتشاراً بين الرجال،

---

(١) ومن الذين يؤيدون الرأى الأول

Lawson Tait, Spitzka, and Metchinkoff.

ومن رأى Mercier أنها نادرة بين المثقفات . فى حين يرى Deslandes انها متكافئة بين الطرفين غير أن Ellis يقرر أنها منتشرة بنسبة اكبر بين الفتيات بعد سن البلوغ

والبعض الآخر يقيم البرهان على انها منتشرة بنسبة اكبر بين النساء غير أن الاختبار قد أيد الرأى الثانى .

على أنه من الصعب تقدير هذه الاحصائيات نظراً لأن العرف يقضي على المرأة بالتكتم الشديد على كل ما يخص حالتها التناسلية وأن كل ما يصل من المعلومات يأتى عفواً أثناء التحليل النفسى ، وقد لا نخطىء اذا قررنا انها منتشرة بين النساء بنسبة اكبر مما هو معروف . وحتى بين المتزوجات توجد هذه العادة بنسبة ١٠٫٠٪ وخصوصاً بين ممن لم يوفقن فى زواجهن ، وتبدو عليهن مظاهر البرود الجنسى ، فهؤلاء يندفعن فى ممارستها بافراط فى حين انها تكاد تكون فى حكم النادر بين الرجال المتزوجين .

وهناك نوع من (الاتصال الجنسى الخارجى) يتمادى فيه بعض النساء سمحت لهن نفوسهن بممارسته فيعود على الطرفين (الرجل والمرأة) بأقسى الأعراض النفسية والعصبية . وقد دلت الاختبارات على أن اللواتى يفرطن فى ممارسة العادة السرية ولمدة طويلة لا يشعرن بلذة ما فى الاتصال الجنسى الطبيعي وينتابهن نوع من البرود والتقزز يرجع لعوامل نفسيه . كما قد يكون التقزز من بعض الاطعمة راجعا الى اضطرابات نفسية أيضاً .

يرجع برود العاطفة والتقزز من الاتصال الجنسى الطبيعى غالباً الى أن الكثير من المربين يصورون للفتيات قبل الزواج وبصور بشعة كل ما يخص التناسل ، فتنطبع هذه الصور فى نفوسهن حتى بعد الزواج فيعدن لممارسة هذه العادة (اللذة الذاتية)، كما أن هناك بعض من النساء يخشين الحمل لعدم رغبتهن فى انجاب

أطفال فينفرن من الاتصال الجنسى ويلجأن الى العادة السرية.

ويحسن بنا أخيراً أن نذكر ان هناك عددغير قليل من الرجال والنساء يلجأون الى الزواج ظنا منهم بان العلاقة الزوجية تخلصهم من عمليات اللذة الذاتية أو من اللواط. غير أن ذلك ليس صحيحاً ولا مفيداً بل له على نقيض ذلك نتائج لها خطورتها على الطرفين.

الفصل السابع
المبالغة في اضرار العادة
أثر تكتم ممارستها

لعله قد ثبت للقارىء مما سبق أن ممارسة «العادة السرية» من وقت لآخر ، فى مرحلة البلوغ ، لايتعدى ضررها الدائرة النفسية والدائرة الأدبية . على أن تقدير نتائجها يتوقف على كيان الشخص ، ومقدار الميول الصحية التى وجهه اليها ذووه . واتجاهاته الأدبية ، ونظرته الى « العادة السرية » ، أى خوفه مما تلقاه عنها .

على أن الأشخاص الذين يميلون الى الوحدة ويفرطون في ممارسة هذه العادة ، وينتقلون بشهواتهم من دائرة الحقائق الى دائرة التخيلات ويذكرون ويتصورون ضررها حسبما سمعوا وقرأوا هؤلاء هم الذين يمرضون نفسياً بالخوف الشديد بأنواعه المختلفة . ويعتريهم الخجل الشديد وغير ذلك من الأعراض النفسية .

وقد اتفق معظم الباحثين المجددين على أن جزءاً كبيراً مما سمى «أضرار العادة السرية» انما هو نوع من المبالغة المفرطة ، والخرافات السخيفة التى وصلت من الكتابات العتيقة ، ومن بعض الكتاب فى الوقت الحاضر بكل أسف . وأغلب تلك الآراء البالية التى تلقاها الناس عن هذه « الأضرار المزعومة »

هي من مخلفات كتابات كاتب اسمه تيسوت Tissot الذى كتب في هذا الموضوع فى عام ١٧٦٠ ميلادى ، وشايعه بعض المؤلفين الذين كتبوا فى نفس الموضوع فى عام ١٨٩٠ .

غير أننا نرى أن أعلام اليوم المبرزين ينقضون هذه الأفكار الرجعية بأساليب وآراء مختلفة ، فمنهم من يغالى فينكر كلية أى ضرر من ممارسة هـذه العادة ويقرر الأستاذ العلامة Jones أن الحقيقة وسط بين النقيضين .

وهذا أحد أعلام اليوم Healy ممن انكبوا على دراسة هذه العادة فى البالغين ، يرى أن الانزعاج من العادة يؤذى الشاب أكثر مما تؤذيه العملية ذاتها . كما يقرر آخر Moll أن ضررها محصور فى الناحية الأدبية ، وذلك أن الشاب الذى يمارسها يرى نفسه وقد هوى عن المستوى الأدبى اللائق ، وأصاب نفسه بأبلغ الأضرار كما أن بعض المرضى إذ يظنون خطأ أن نزول المنى – بطريق العادة السرية – خسارة لا تعوض ، ينزعجون انزعاجاً شديداً . فلئن كان رجال العصر القديم قد بالغوا فى تقدير الأضرار الجسمانية إلا أن النتائج الأدبية والآثار النفسية التى تساور الشخص الذى يمارس العادة هي على جانب عظيم من الأهمية كما يؤيد ذلك المرضى الذين عولجوا بالتحليل النفسى .

ومن ذلك ما قرره العلامة هيلى Healy من أن ممارسة هـذه العادة هي السبب الأكبر في كثير من تقصيرات الشاب المراهق .

على ان الفكرة السائدة فى أن ممارستها تسبب البلاهة والجنون والتدرن الرئوى ، وما اليها من الأضرار المزعومة ، ليست فكرة

واهية فقط ، بل هي فكرة سخيفة ايضا ، يسلم بعض المرضى بها ويتصرفون فى ضوئها ، ومن الصعب إزالتها من أدمغتهم حتي بالأدلة المنطقية . ومما يزيد الطينة بلة ان مخاوف بعض السذج تزداد متى قرأوا كتابا من كتب الدجل التى تبالغ فى الكلام عن أضرار العادة .

فاذا حاول شخص له مركز ادبى وكلمة محترمة مطاعة ، أن يقدم نصيحة لأحد الشبان فى هذا الأمر ، فليحذر المبالغة فى الكلام عن الأضرار المزعومة ، لأن النصيحة الغير متزنة تكون سببا فى ظهور الأمراض العصبية ، التى قد تدفع البعض إلى الاحجام عن الزواج وبذا تكون تلك النصيحة سببا فى هدم حياته المستقبلة بأجمعها .

على أنه اذا كانت الممارسة المبكرة لهذه العادة هى العلة الحقيقة فى النتائج المزعومة ، لكان عدد كبير من الناس فى حالة يرثي لها عقلياً وجسمياً . ونحن لا ننفى انه يجب بذل النصيحة فى اقصاء الشاب عن ممارسة هذه العادة ، لكن ذلك لا يأتى عن طريق المبالغة الخاطئة فى مضارها . فاذا حاولنا أن نهدد شخصا ما بأنها ستؤدى الى موته أو جنونه — فاننا نجنى عليه فعلا أيما جناية . لأن مثل هذا القول ، فضلا عن عدم نفعه ، فانه يترك فى نفسه مخاوف دائمة تظل حتى بعد الاقلاع عن العادة . وقد فهمنا أن الخوف يفعل بالنفس أكثر مما تفعل العادة .

وأحب أن أكرر ملاحظة أشرت اليها فيما سلف ، وهى أنه

اذا كانت هذه العادة فى الغالب عنصراً فسيولوجياً للطفل والمراهق فهي ليست كذلك عند الشاب المكتمل . وإذا لاحظنا عليه ميله الى ممارستها فمعنى ذلك أن تكوينه التناسلي النفسى لايزال ناقصاً . ثم ان الميل اليها لمحاولة اشباع الغرائز الجنسية أمر غير مرغوب فيه ، لأن العادة تزيد فى أنانيته وتقف حائلا دون نجاحه الاجتماعى . كما أن التمسك بها يهدم أركان حياته الزوجية الصحيحة فيما بعد .

والفكرة الرئيسية التى يجب ألا تغيب عن بالنا هي أن الطريق الى النمو المطرد فى ذكاء الطفل وتهذيبه هي حفظ ميولهالشهوانية فى الدائرة الصحيحة ، أى الى الدور الذى تفوز به بالاشباع السليم . أما كبت الغريزة مما يدعوا الى تقهقرها (وظهورها فى شكلتهيج شرجي مثلا) فهذا يهدم أخلاق الفرد ويذهب بمركزه الاجتماعى وكرامته وشخصيته .

أثر التكتم

من المشاهدات المعروفة أن الأحداث يحاولون أن يخفوا عن العيون مظاهر ممارستهم لهذه العادة . وكلما حاول الشاب أن يحوط نفسه بجو من التكتم كلما كان من العسير التغلب على العادة . أما اذا صارح بها أحد رفاقه الشبان واستعان عليها ببعض المعلومات الصحيحة ، كان من السهل عليه حينئذ ان يتفهمها .

وقـد بين كمبف (Kempf) ان نتائجها تقل نسبيا اذا اعتقد الشاب (ولو خطأ) انها ضروره فسيولوجيه يصح عملها. كذلك اذا استعمل هذه العادة مع وامام بعض اصحابه الذين يشاركونه اسراره، فيتأكد انه ليس الوحيد الذى يمارسها وحتى اذا كان لها اى ضرر فذلك يصيب الجميع .

والواقع ان اعتماد البالغ على صحة معلومات الشاب المكتمل من شأنه إزالة كثير من المخاوف التى تلازمه ، وانقاذه من الشعور بصغر النفس ، وعلي الأخص اذا اقتنع بأن لا أساس لتخوفه من السقوط من عين الهيئة الاجتماعية أو الحرمان من احترامها .

وفى متناول الأب الذكى أو المعلم الحصيف ان يأخذ بيد الشاب الى الطرق السامية للتنفس عن ميوله وشهواته ، مع تدعيم الحياة الخلقية والأسس الأدبية فى الوقت ذاته ، وان يعلمه كيف يحيا حياة الحقائق (Reality) لاحياة التخيلات الشهوانية . هذا مع افتراض أن الشاب يرغب في التغلب علي ميوله الشهوانية والتحرر من هذه العادة، كما نفترض فيه الاعتزاز بالنفس والرغبة فى الحصول على الاعتبار الاجتماعى .

ولا ننس ان استعمال الرفق المقترن بالمعلومات الصحيحة أفضل بمراحل من استعمال العقاقير أو العمليات الجراحية . فالشاب يستطيع ان يتكلم بصراحة عن ممارسته لهذه العادة مع الشخص الذى يثق به سواء كان والده أو الطبيب الخاص أو قريبه . أما إذا

أظهر هؤلاء روح عدم الألفة وابدوا شيئاً من الانتقاد الجارح فان ذلك يؤدى بالشاب الى زيادة التكتم فى ممارستها وربما يعمد إلى التبرم وعدم الرضى او تتملكه روح المذلة والهوان. واذا لاحظنا على الشاب انه يحاول الظهور بمظهر الكبرياء والعجرفة ، فمعنى ذلك انه يحس فى دخيلة نفسه بالنقص والضعة، ولذلك يحاول الظهور بالكبرياء لستر النقص الذى يشعر به. ويحسن بى أن أشير هنا الى أن محاولة الشاب الحصول على معلومات سرية كقراءة الكتب البذيئة المهيجة او النظر الى الصور المثيره يضره أدبيا وجسمانيا.

والذى شاهدناه هو أن الشبان الذين يتجنبون التحدث عن هذه العادة ينسبون اضطراب حالتهم وتكاسلهم وغير ذلك الى شدة تعلقهم بالتدخين او الافراط فى شرب القهوة وهذا هو التعليل الظاهر لهم (Rationalisation) وليس يهين عليهم ان يقولوا الصدق فيما يتعلق بممارسة العادة السرية وذلك لعلمهم أنها أمر تنفر منه الآداب الاجتماعية ، ويتمنون ان يتحاشوا وصمة العار التى تلصق بهذه الأعمال التى تنافى العرف الاجتماعى . ومن هنا يتضح لنا كيف أن استمرار التكتم والنضال الداخلى المستمر يؤدى الى أمراض نفسيه شديدة وأعراض عصبية مختلفة مثل اضطراب النظر (الزغللة) والدوخة وضيق الصدر وعدم الشهية للاكل وغير ذلك .

الفصل الثامن

أعراض العادة السرية ونتائجها

الأعراض : مر بنا القول أن العادة السرية مظهر يميز مرحلة البلوغ فى النمو التناسلى النفسى . وإزاء هذه الحقيقه نرى أن التحدث عن أعراض ممارستها وعلاماتها قد لا يعتبر من الوجهة العلميــة النفسية حديثاً دقيقاً . لكننا إزاء ما يذيعه بعض الكتاب حين يعتبرون نتائج ممارسة هذه العادة أعراضا ، لا يسعنا إلا أن نشير باختصار الى هذه الأعراض . وفى مكان آخر سيرى القارىء تفصيلا عن النتائج التى يقال انها ناشئة عن الافراط فيها .

وأشرت قبل ذلك إلى أن ممارسة هذه العادة بحالة عرضية ـ أى دون افراط ـ لا ينشأ عنه سوى بعض النتائج الخلقية والأدبية . وفضلا عن ذلك فقد قرر الطبيب جرافز Graves البحاثة الشهير فى أمراض النساء أنه حتى فى حالة افراط النساء فى ممارسة هذه العادة تنتج أعراض أمراض نفسية اكثر منها أعراض عضوية . وفي الشخص المتدين الذى يمارس هذه العادة نجد صراعا عقلياً عنيفاً اكثر منه فى الشخص العادى. ومن هنا نرى سبب الآلام النفسية الشديدة التى يعانيها الشخص المهذب الأديب الذى مارس هــذه العادة ولو مرة واحده فى حياته . بينما نجــد الشخص العادى الذى لا يؤنبه ضميره على هــذا التصرف يمارس

العادة لمدة طويلة دون أن يتأثر الا بقليل من نتائج الافراط فيها . على أنه من العسير أن نحدد مدى الافراط فى مزاولة هذه العادة ، إذ يتوقف الحكم فى تقديره على الحالة الصحية العامة للشخص والمجموعة العصبية ، والشخصية ذاتها،والميول الأدبية ، وقوة الكفاح الذهنى ، لذلك نرى أن الاشخاص يتفاوتون فى درجة التأثر بها وكذلك تختلف فى عهد الطفولة عن عهد المراهقة وكذلك عن عهد الشباب كما سبق أوضحنا .

ولعلني لست بحاجة الى أن أشير الى ضرورة دراسة شخصية كل مريض على حده دراسة وافية ومعرفة مؤثرات البيئة على أخلاقه . فالمريض النفسى ، كقاعدة عامة ، يتخير أسهل الطرق لتنفيذ كل ما يحقق أغراضه ، ولكن الجهاد المتواصل للاحتفاظ بطهارته أو الحصول على الزوجة الموفقة ، يتطلب منه مجهودا فوق طاقته فى بعض الاحيان . ولكن نظراً لان كثيرين منهم ليست لديهم القوة الادبية القائمة على دعائم وطيدة لذلك نراهم يلجأون الى الافراط فى هذه العادة .

وما دمنا بصدد الكلام عن الاعراض فلا بأس من القول بان كثيرين من هؤلاء المرضى يشعرون فى دخيلة نفوسهم بعدم احترام الغير لهم ، كما انهم يحسون احساساً متواصلا بالذنب Sense of Guilt ويشعرون بعدم الجدارة الشخصية، ولا شك ان حالة كهذه تؤدى الى الاثرة ، والابتعاد عن المجتمع وفقدان الميل للدرس والمذاكرة كما انها تولد الشعور بالوحدة فى هـذا العالم

والاحساس بانقباض النفس حتى يصل فى بعض الأحيان الى درجة اليأس . وتشتد هذه الأعراض عند الشبان المتدينين تدينا صحيحاً لا تديناً زائفاً : ففى بعض الحالات نرى الوساوس والحرص الشديد نتيجة للنضال الداخلى. واذا كان الشعور بالذنب بارزاً فى أحد المرضى فانك لتراه يكاد لا يبالى ولا يصدق طبيبه اذا قرر أن هذه العادة لا تضر بالجسم كما يتوهم ، أو أن الأعراض النفسية يمكن التغلب عليها ويتيسر علاجها .

والنتيجة المحتومة للصراع الذهني المتواصل بين هذه الرغبة الغريزية وبين الضمير القاسى ، هى أن المريض يشعر بالاعياء الفكرى الشديد ، وهذه الحالة المضطربة تستنفذ كل نشاطه الذهنى وكان الأجدر توجيه ذلك النشاط العقلى الى طرق أفضل وأنفع. فبعض هؤلاء المرضى يخامرهم الاحساس بالهوان والذلة من الغير، وبعضهم ممن يعذبهم الشعور بالدنس الأدبى يعمد الى غسل يديه بكثرة دون مبرر حقيقي وهذا الوسواس وهو الخوف من القذارة والميكروبات أو المرض هو تعبير رمزى للدنس الأدبى وبالرغم من ذلك قد تجد المريض الذى من هذا النوع يحاول أن ينفى عن نفسه الافراط في ممارسة العادة ، ويشكو للطبيب مخاوف الاشياء الدنسة ، كما يظن بعض الاشخاص أنهم قد أضاعوا قوتهم الحيوية بسبب ممارسة هذه العادة .

ويظهر لنا جلياً ان القلق والكآبة المستمرة والخوف من نتائج وعواقب ممارسة هذه العادة ، هو الذى يسبب تغيير مجرى

حياة الشاب فتحولها الى شقاء وتعاسة بدرجة لا يمكن أن يتصورها إلا من قاساها . وكان يمكن مجانبة هذه الاضطرابات النفسية لو أنهم عرفوا حقيقة ذيوع مزاولة استعمال هذه العادة والأسباب الحقيقية لامراضهم النفسية. لذلك يحسن بالاطباء وأولى الأمر أن يوجهوا اهتمامهم الى هذه الناحية من الأخلاق حتى يتسنى لهم أن يأخذوا بأيدى أولئك المرضى فى طريق الكفاح ضد هذه العادة والتغلب عليها .

مظاهر استعمال هذه العادة

اتفق ذوى الرأى مع العلامة Stanley Hall على أنه لا توجد مميزات خاصة فى الأخلاق أو الكلام نستطيع أن نحكم بها على أن شخصاً ما يمارس العادة السرية، حتى ولو كانت لنا عين الناقد الاخصائي البصير . وبالرغم من أن البحاثة دانا Dana قد زودنا بقائمة طويلة عن مظاهر ممارسة هذه العادة ، غير أن تلك المظاهر قد تكون أعراضاً لأمراض جسمية اخرى كفقر الدم مثلا ، كما أن الاوصاف التى اصطلح على أنها دليل « العادة السرية » المزمنة، ليست وقفا عليها بل قد تنطبق على الامراض العقلية أيضا . ولكن يجب التمييز بين أدلة الامراض النفسية وبين نتائج « العادة السرية » . وإن كان العلامة هيلى Healy يذكر بعض حالات خاصة من السهل أن نلاحظ فيها نتائج هذه العادة، غير أنه كقاعدة عامة لا يمكن أن نميز هذه النتائج على وجه الشاب المعتدل فى ممارستها . وانه لمن سوء الحظ ان هؤلاء المرضى المساكين

يحجبون أنفسهم عن النـاس خيفة أن يكشفوا فيهم آثار تلك العادة (فيتضاعف شعورهم بالخجل) فيتولد لديهم إحساس دفين بالكآبة والحزن . وهذا مادعا بعض الأدعياء الدجالين أن يلمسوا هذا الضعف الخلقي فى أولئك المرضى فيستغلونه شر استغلال . لذلك فانه من الخطأ الفاضح ان يلجأ الشاب أو أسرته الى أولئك الدجالين ليطلبوا منهم نصيحة لابطال هذه العادة .

نتائج العادة

خليق بناونحن ندرس نتائج الافراط في هذهالعادةان نتناول آثارها فى الاخلاق وفى القوى العقلية، والحالة الأدبية، وأجهزة الجسم كلا على حده . ذلك أن الاطباء على بكرة أبيهمقد أجمعوا على أن كثيراً من المرضى النفسانيين ، حين يسردون تاريخ حياتهم يعزون المتاعب التى يقاسونها الى « العادة السرية » والواقع ان المرضى الذين يستولى عليهم الألم والحزن من جراء التفكير فى نتائج هذه العادة لا يدركون أن مصدر آلامهم أعمق من هـذا السبب الظاهر .

وسوف لا أتكلم هنا عن النورستانيا والشذوذالخلقي كبعض نتائج العادة السرية ـ لأنى ساعود اليهما فى مكان آخر ـ على أنه يحسن بى أن أردد ملاحظة ذكرتها قبلا، وهى أنه فىالوقت الذى نرى فيه بعض الكتاب يقررون ان لا ضرر مطلقا من ممارسة هذه العادة باعتدال ، فهم انما يقصرون كلامهم على النتائج البدنية

وغرب عن بالهم ملاحظة التأثيرات النفسية والخلقية والأدبية فى الأشخاص ذوى التربية العالية . فهنالك فئة من الفتيات يختلطن (رغبة فى ايقاف العادة) بشبان فى حالة شبه اتصال جنسى . فبرغم من أنهن سيبقين عذارى (من الوجهة الجسدية) إلا أنهن لسن فى الوقت نفسه فى مستوى أدبى راق . وذلك بلا شك نتيجة لكفاحهن (كما أشرت) ضد العادة .

النتائج الخلفيه للعادة

يرى الدكتور هوايت White أن التعود على ممارسة هذه العادة لا يترك فى الواقع تلك الآثار الخطيرة التى كثيراً ما ينسبها الناس اليها . ولكن اذا أسرف شاب فى مزاولتها فان نتائج افراطه إنما تحد من شخصيته وتعطل نشاطها .

ويرى الأستاذ ديجرين Dejerine أن الضرر الذى يخشاه الشاب ليس من جراء اجهاد جسده بالعادة إنما يرجع فى الواقع الى التأنيب الأدبى وخوفه من أن تكون العادة قد أضرت بكيانه الجسمى . وتظهر هذه النتائج بشكل جلى فى الشبان الكبار اذا استمروا فى ممارستها .

على أنه اذا أطلق الشاب العنان لهذه العادة ولم يستطع كبح جماحها في الصغر ، فانه يضع بذلك بذرة لشخصية تعسة ! ! . . .
وما دامت «العادة السرية» إحدى الوسائل الصبيانية التى يلجأ اليها الغلمان الأحداث للحصول على الاشباع الشهوانى ، لذلك

نرى أن الاستمرار فيها يحول دون النمو التناسلى النفسى في دور المراهقة . وكذلك مادام فى نفس الشاب إحساس متواصل بأنه فى مستوى أقل من غيره فانه يرى من العسير عليه أن يختلط برفقائه . وان كل محاولة فى سبيل تقريبه من الوسط الاجتماعى إنما هي محاولة فاشلة . فالعادة تقود الشاب الى العزلة كما أنها تثير فيه فى بعض الأحيان «الاثرة» وجعل اهتمامه وتفكيره مركزاً على نفسه . ومتى انعزل عن الناس ضعفت قوى أخلاقه لكبح العادة فيتمادى ويفرط فى مزاولتها .

ويجب عند ما نحاول درس حالة أحد المرضى ، أن نكون على حذر من أن نلقى تبعة كل نقص خلقي فيه على ممارسة العادة ، إذ اننا نلاحظ فى الأشخاص المعتوهين كثيراً من الصفات والميول الرديئة التى لا دخل للعادة فيها .

على أن ممارسة العادة قد ينشأ عنها — أو يتضاعف بسببها — بعض الصفات والاتجاهات كالعزلة والتكتم والتكاسل والخجل الشديد وشدة الحرص والوسواس وفقدان المحبة للآخرين والتبرم بالحياة وكرهها — ونجد فى الغالب أن الشخص المدمن للعادة لا يكترث بالغير إذ أن ممارستها تجعله يعتز بجسمه لشعوره بأنه مصدر تلك اللذة .

النتائج النفسية للعادة

إن أشد النتائج خطراً هى الاضطرابات النفسية التى تعقبها

والتى تحتم علينا أن نسرع بمعالجتها . فجميع الأعراض التى تظهر بسبب العادة ليست ناتجة عن المجهود الجسدى بل من الحالة النفسية التى تعقب نهاية العملية مباشرة مثل التبكيت القاتل والاعتقاد بالاثم والحزن الذى يلازم الشعور بالذنب ، والمخاوف الكثيرة المنوعة . على أن الطبيب اذا لم يكن على حذر فى أثناء تشخيص حالة المريض فانه يضاعف — عن غير قصد — شعور الشاب بالتهيب وشدة الخجل .

وقد اتفق الباحثون فى هذا الميدان على أن التبكيت والتأنيب القاتل يرجع الى ماسبق أن سمعه الشاب المريض أو قرأه عن «العادة السرية» والمضار الكثيرة الناشئة عنها . ولذا فهو يناضل ازاء الدوافع الجنسية القوية ولا سيما أثناء انتقالها من مرحلة حب الجنس لنفس الجنس .

وكل المرضى النفسيين يمعنون فى اتهام أنفسهم بكل صروف الاتهام ويتولد فيهم الوسواس الذى يعذبهم والذى يظنون أنه يخفف من وطأة هذا النضال الداخلى ، وغالبا ماتساورهم فكرة الانتحار كآخر تجربة للتخلص من تلك المتاعب ووضع حد لتلك الحياة الشقية . على أن الشعور بالذنب الذى يحسه هؤلاء المرضى ربما يكون ناتجاً من مصدر آخر غير العادة . على أنه اذا اعتبرنا الحياء فى حد ذاته فضيلة اجتماعية تردع الشاب عن البحث عن لذته فى نفسه Autoerotic غير أنه يخشى من ازدياد الحياء أن يتحول الى خجل شديد وجعل معظم التفكير

مركزاً على نفسه وهذا لامراء يحول دون الاقدام على الأعمال الهامة وذلك لأن الجزء الباقي من تفكيره (العقل الواعى) لا يساعده على الاضطلاع بمسؤوليات الحياة من جميع نواحيها. ويصحب ذلك عدم الثقة بالنفس وضبط الارادة .

والشاب الذى يستمر فى ممارسة العادة يلازمه شعور بالنقص Inferiority يحاول تغطيته بالتظاهر بالكمال وهذا يتطلب منه حتماً صفات الرياء والخداع ثم الغيرة الشديدة والقسوة والعناد المسرف . أما فى البنات فبعضهن بدلا من التحلى بفضيلة التحشم نراهن مستهترات لديهن من الجرأة المتناهية ما لا نعهده فى الجنس اللطيف . كما ان كل محاولة من جانب المربين لابطال العادة هي تجارب فاشلة بالرغم من طرق الارهاب وانواع العقاب التى يتوخونها والواقع أن النتيجة فى النهاية هي عكس ما يتوقعون. ويحسن بى أن أسطر هنا فقرة للعلامة ميلز كالبين Culpin Maillais (١) الاستاذ الكبير في التحليل النفسى إذ يقول : —

« العادة السرية تطور طبعي فى النمو الجنسى . وكتب الطب الحديثة صامتة عن أى تأثير لها على سلامة الجسد . مع أن اختباراتي الشخصيه تظهر أن كثيرا من المزاعم الشائعه ليس لها أى أساس من الصحه بل هى مبنيه على دعائم واهيه لا تؤيدها

(١) صحيفة ٧٥ من

(1) Recent Advances in the Study of The Psycho Neuroses By Millais Culpin (M. D. Lond.), F.R.C.S. (Eng). Lecturer in Psychoneuroses at the London Hospital Medical College, and in Medico - Industrial Psychology at the London School of Hygiene and Tropical Medicine.

الحقائق الملموسة . وأهم الشكاوى بشأن اضرارها (وهي لسوء الحظ شائعة بين جميع الشبان بشكل واضح) هى التى يشكو منها مرضى النفوس (من كلا الجنسين) الذين ساموا نفوسهم العذاب لسنوات عديدة باعتقادهم — خطأ — ان جميع متاعبهم وأمراضهم نتيجة افراطهم فى العادة ..

وقد يتبادر لذهن البعض ان هذا العذاب الذى لا مبرر له هو الذى سبب مرضهم النفسى ولكن التحليل النفسى أظهر لنا جليا بأن هذا الزعم فاسد . فالاضطراب النفسى يحمل الشخص على تركيز تفكيره والاعتقاد بأن العادة السرية هى مصدر متاعبه فى حين ان الاعراض نشأت مستقلة . فاذا شرحنا للشاب (أثناء التحليل) هذه الحقائق أزالت عن نفسه كابوسا وحملا ثقيلا كان يئن تحته وهو الشعور بالجرم فى حق نفسه بافراطه فى هذه العادة وانه كذلك مذنب ازاء تأنيب الضمير الشديد نظرا لما سمعه أو قرأه من الآراء الخاطئة بشأنها .. ومتى تفهم هذه الحقيقة اطمأنت نفسه وارتاحت وأزيح عنها الحمل الثقيل الذى كانت تقاسيه وخف بذلك اضطرابها .

وأعظم الضرر هو مايصيب الاطفال عندما يحاول منعهم من ممارسة العادة سواء كان ذلك بالتهديد بوخامة العاقبة أو بالتشديد بمراقبتهم أو بتقييدهم بالوسائل الآلية التى يتبعها بعض المربين (كربط الأيدى أثناء النوم أو وضع أجسام صلبة فى ظهورهم ليحملوهم على النوم على جوانبهم) وقد تجلت لى أثناء التحليل النفسى النتائج السيئة التى عادت على المرضى البالغين من جراء استعمال

الطرق آنفة الذكر ولا سيما الاخير منها فانه يؤدى إلى أعراض نفسية شديدة تجعل المريض فى حالة غير مجدية وتفكير غير مثمر .

وقد يشاهد على الشبان الذين يؤتى بهم للمعالجة بالتحليل النفسى لابطال العادة السرية علامات الجزع والاضطراب الشديد كنتيجة لشعورهم بالخوف من معاملة أولياء أمورهم الذين مهما حاولنا اقناعهم بان سبب اضطراب بنيهم لا يرجع الى العادة السرية ذاتها بل الى محاولة ايقافها . وقلما نجحنا فى اقناعهم بذلك . والواقع الملموس أن هناك كثير من الشبان المرضى ضحايا ليقظة المربين (الغير مرغوب فيها هنا) . اذ يتتبعونهم انى ذهبوا ولا ينقطعون عن تهديدهم باشنع الوسائل حتى تسوء حالتهم فيأتون بهم للعلاج شاكين متشائمين من أن حالتهم أصبحت يرثى لها عقليا ونفسيا وأنهم لا يمكنهم تلقي الدروس أو التمتع بالالعاب وما إلى ذلك ... الخ

أما العلامة هيلى Healy فيرى أن الممارسة المزمنة للعادة يصح أن تكون سببا من اسباب الغباوة العقلية ، فنلاحظ على المزمن للعادة قلة الالتفات وشرود الذهن وعدم المقدرة على التركيز الفكرى والتردد المستمر فى كل عمل يأتيه والرغبة الدائمة فى تغيير نوع العمل الذى يباشره لانه لا يجد فيه لذة . وقد لوحظ أن جانبا كبيرا من هؤلاء المدمنين يفشل فى اختبارات الذكاء ، كما انه يوجد فريق آخر من المرضى تنشأ فيه بسبب « الادمان » محاولة البحث عن أنواع المباهج المصطنعة المثيرة مما يؤدى إلى عادات وتفكيرات رديئة وتخيلات شاذة دنيئة .

« القلق العصبي »

إن اكثر نتائج « العادة السرية » انتشاراواستمرارا هو القلق العصبي،وهو يعزى علي اختلاف أنواعه إلى الشعور بالسقوط والخيبة سواء كان ذلك من الوجهة الادبية أو العقلية أو الجسدية.ونوع القلق الذى يلازم الشاب من جراء ممارسة العادة ينهك قواه إلى حد الاعياء . والارق هو النتيجة الطبيعية لكل أنواع القلق العصبي.
ومما يبعث على الأسف أن كثيرا من المربين الجهلة يتركون فى الطفل أسوأ النتائج ، حين يهددونه — عن نية حسنة طبعا — بقطع عضو التناسل أو بقطع احدى يديه إذا لم يقلع عن اللعب بعضوه أو عن تبوله ليلا فى فراشه ظنا منهم بان ذلك يقوده الى الاقلاع عنها وهى طريقة خاطئة كم نتج عنها علل نفسية منوعة كان من أجلى مظاهرها في الكبر العنة (عدم الانتصاب) ، وسائر أعراض الشلل الهيستري الذى يصيب اليدين والذراعين ، وغير ذلك من مظاهر الأمراض النفسية .

ولهذا القلق مظاهر منوعة ، فقد يتخلف عنه حزن وكآبة دون أن يتطور إلى اضطراب عقلي . ومن مظاهره أيضا أن يسير بعض المرضى والمصابين به فى الطريق يلتفتون يمنة ويسرة خشية أن يكون بعض الناس متعقبا أو مراقبا لهم، وهى حالة ترجع الى وجود إحساس بالذنب فى دخيلة نفسه « Sense of Guilt » .
ومن مظاهره أيضا أن ينسب بعض النساء المريضات « نفسيا » مايقاسونه من امراض إلى ممارستهن هذه العادة.وانها العلة الرئيسية لأمراضهن.

الخوف من الجنون

والخوف من الاصابة بالجنون عامل مزعج قوى يلازم كثير من هؤلاء المرضى . وقدلخص عالمان من علماء الطب النفسى (White & Jelliffe) الآراء الحديثة عن علاقة «العادة السرية بالامراض النفسية » بقولهم أن هذه العادة نتيجة للاضطرابات العقلية اكثر منها سببا لها . ويقول (J. R. Hunt)أنها قد تسبب النورستانيا لا الجنون ، والحقيقة أن الكفاح الشديد لا بطالها هو بلا شك عامل قوى فى كثير من حالات الاضطراب العقلى يشير اليه الاطباء بانه انحطاط أو ضعف اعصاب . وهذه الحالة تصيب الاشخاص المتدينين ذوى الحساسية الشديدة ، على ان الحقيقة هي انه ليست العملية بالذات هى سبب الاضطراب العقلى بل الكفاح الشديد هو الدافع والمسبب الاكبر . ولعله من المفيد أن أشير هنا إلى اننا كثيرا مالاحظنا ان الاضطرابات النفسية تزداد بعد الاقلاع عن العادة وذلك لعدم توفر الظروف لذى المريض لتحويل هذا النشاط إلي تسامى يفيد المجتمع أو يسيده هو شخصيا . ومن ناحية أخرى فان الميل لاستئناف ممارسة العادة يؤدي بلا شك الى صراع عقلى عنيف .

ويعتقد معظم الناس اعتقادا خاطئا بان العادة السرية عامل قوى من عوامل الامراض العقلية كما سبق أشرنا ، فيقولون مثلا ان المرضى « بجنون المراهقة » هم من مدمنى العادة ولذا كان من العسير اقناع المربين بان هذا الجنون هو سبب العادة لا نتيجتها .

على أن العلم الحديث قد بين أن الامعان فى التخيلات الشهوانية وهى حالة ملازمة لجنون المراهقة — يساعد على الافراط فى ممارسة العادة ، وعلى ذلك فانه يضاعف الاضطراب العقلى . ويقرر بريل Brill ان معظم الحالات التى كان يصفها الكتاب الاولون بانها حالات جنون سببه العادة ، كانت فى الواقع حالات جنون المراهقة لم تكن حينذاك معروفة لديهم .

« النتائج البدنية للعادة »

سأردد هنا ما قلته قبلا من ان الاعتدال فى ممارسة العادة السرية لا يترك فى الغالب أى أثر على الكيان الجسمى ، ولو أن بعض الاخصائيين فى الامراض النسائية حينما يتحدثون عن الامراض أو العلل التى تصيب الجسد ، يقولون ان الافراط فى ممارسة هذه العادة يسبب تلك الامراض .

ونحن حين ندرس عناصر وأسباب العادة نستطيع ان نجد نوعين متميزين منها . فهنالك نوع من الممارسة تقتصر الغاية فيه على « الاشباع الحسى » وآخر ينتهي بلذة الشبق .

والنوع الأول بسيط تمارسه الانثي ، بينما يمارس الذكر النوع الثانى ويصحبه حركات ومجهود كبير مع ازدياد تفاعل فى الافرازات الأخرى للجسم . ومن هنا نرى أن أقوال بعض الكتاب الذين يشيرون الى أن نتائج هذه العادة على النساء أقل منها على الرجال ، تحتاج الى بعض التعديل . فقد أثبت علم وظائف الاعضاء ان هذه الحقيقة لا تنطبق على النساء جميعا . كما أن علم النفس قد بين لنا انه ليس من سبب يدعو الى اختلاف التأثير الناشيء من الكفاح

العقلى لدى النساء عنه فى الرجال . إذ مع أن كثيرا من النساء (وعلى الاخص الغير متزوجات) لا يمارسن العادة إلى درجة الحصول على الشبق وانه مادامت تعلم ان ما تفعله هو عملية تناسلية ، وانه يجب عليها مقاومتها ، فلما نظن أنها تبدى من الكفاح لابطالها مجهوداً أقل مما يبديه الرجل؟ لقد لمسنا فى حالات كثيرة بالاختبار حقائق واقعية لا تؤيد هذا الزعم فحسب بل وتبرهن على عكسه.

« النورستانيا »

أقصد بهذا الاصطلاح المرض العصبي المعروف في الدوائر الطبية الحديثة بالنورستانيا الابتدائية أو الشعور بالتعب . وبما أنى اشرت إلى هذا العارض قبلئذ فانى سأحدث القارىء الآن عنه بايجاز . والنورستانيا كحالة ابتدائيـة (Primary) مرض نادر الوجود ، لذلك يجب ألا نخلط بينها وبين « النورستانيا » التى أشار اليها بعض الكتاب القدماء باعتبارها مضاعفات لأمراض أخرى، كما يجب ألا نخلط بينها وبين مظاهر السهتيريا.

ويعتقد رجال التحليل النفسى فرويد وجونس (Freud , Jones) وغيرهما أن النورستانيا الابتدائية ترجع فى أصلها الى طول ممارسة العادة السرية والافراط فيها . ويؤيدهما فى الرأى (Eulenburg, Lowenfeld) غير انهما يضيفان عوامل اخرى .

وأهم علامات هـذه النورستانيا التعب ، وأوجاع الساقين ، والذراعين والسلسلة الفقرية والشعور بثقل الرأس والصداع واضطراب المعدة . ويضيف احد الباحثين « بلوخ » (Bloch) اضطراب النظر (زغللة العين) وخفقان القلب. ومن علاماتها أيضا

اوجاع الظهر والارق وزيادة النبض وبعض اعراض امراض النساء كما سنشير إلى ذلك فيما بعد .

ويشكو بعض هؤلاء المرضى بفقر الدم والضعف المتناهي كما يشعر الكثير منهم براحة عند الصباح ولكن اذا ما اقبل الليل احسو بانقباض وضيق (نرفزة) .

على ان بعض الكتاب منهم يخالفون هذه الآراء . فمن قائل بان العادة السرية نتيجة للنورستانيا لاسببا لها . الا ان آخر وهو الاستاذ «Stekel» ينادى بانه لا يوجد ما يسمي نورستانيا بل ان الحالات التى توصف بانها حالات نورستانيا هى فى نظره اضطرابات نفسية .

وقليلون هم الذين يقرون رأى العلامه Aschaffenburg اذ يقول ان الحياة التناسلية لا تترك فى الجهاز العصبي أى اثر سيء يذكر . وذلك لان مبادىء المخاوف المرضيـة فى هذه الحـالات مسألة يعرفها حتى عامة الناس ويعطينا الاستاذ (Jones) الرأى المتفق عليه حديثاً حينما يقول « ان النورستانيا الناشئة من الافراط فى ممارسة العادة انما تسرف فى الشعور بالتعب والفتور العام الذى يعقب ممارستها بعد كفاح عقلى شديد إذ ان هذا الكفاح يكون قد استنفذ النشاط كله وهذا يؤدى لامراء الى التعب اكثر مما تسببه العملية ذاتها .

وينتج عن هذا الكفاح ضغط مرجعه كبت القوى الحيوية ولو ان الشبق الناشيء عن الاتصال الجنسى يخفف من حدته الا أن الامر ليس كذلك فى حالة ممارسة العادة حيث تكون المشاعر

محبوسة لاتجد لها منفذا تبرز منه ، وكذلك فى حالة الاتصال الجنسى بين زوجين غير متوافقين ولا متحابين . ولذا لاتميل إلى قبول رأى (Anstie) الاخصائي فى أمراض النساء حين يقول «ان هذه الاعراض تزول عند الزواج » لان الزواج مع وجود مثل هذه الاضطرابات يزيد الطين بلة ولا يأتى بالفائدة المرجوة .

على أنه من المسلم به أن كثيراً من الاعراض التى يقال أنها تدل على ممارسة العادة السرية يمكن أن تكون مظاهر لامراض أخرى أيضا فيقول كيش (Kisch) أن كثيراً من الفتيات اللواتى يمارسن هذه العادة يبدو عليهن التعب وإصفرار الوجه واسوداد الجفون والتكاسل فى الفراش ، وإن كانت هذه المظاهر عينها موجودة فى الفتاة المصابة بفقر الدم والتى تحيا حياة الكسل دون أن تمارس العادة السرية .

والشعور بالتعب وفتور الهمة الذين يشكو منهما هؤلاء المرضى يكون بعضه من مصدر نفسى وبعضه الآخر من مصدر جسمانى إذ انه يجب الا يغرب عن البال ان الضغط الجسدى (Tension) وتهيج الاعصاب المستمر يولدان تعباً . ومن الشبان المراهقين من يضنى نفسه بالكفاح المتواصل إزاء مشاكله الجنسية . على أن الشاب المستقيم يستطيع ان يحيا سليما صحيحا إذا هو تجنب تعطيل مجرى نشاطه الجنسى ووجهه لاغراض نبيلة أخرى غير شهوانية كالالعاب الرياضية والنوادى الاجتماعية والفنون والمطالعة وما إلى ذلك كما سبق أشرت ...

على ان العلامة (Kempf) يقول ان الافراط فى ممارسة العادة كما يلاحظ بصفة عامة فى المرضى النفسيين — ينشأ عنه كره بعض الاطعمة والقىء والصداع والضعف والنحول . ويرى جونس (Jones) وكتاب آخرون ان الافراط يسبب عند النساء البرود الجنسى وفقدان الشعور التناسلى كما يسبب عند الرجال العنة (عدم الانتصاب) كما اسلفنا قبلا ، على أن هنالك عوامل أخرى لهذه الحالات المرضية ومنها الخوف والتقزز من المرأة وعدم التجانس وما إلى ذلك .

« النتائج البدنية الموضعية »

يختلف الاخصائيون فى الامراض النسائية في تقدير النتائج التى تتركها العادة السرية عند المرأة ، فأشار أحدهم إلى بعض علامات الافراط فى العادة كتضخم البظر وطوله واحمراره وذبول الشفرين الصغيرين وسمكها وتجعدهما وهذه علامات لا تجدها الا فى حالات الاسراف فى ممارسة العادة ، كما انه يلاحظ احيانا أن الشفرين الكبيرين وغشاء البكارة فى حالة استرخاء وترهل ، وكذلك احمرار المهبل ، على انه يوجد بعض الأعراض الأخرى التى لا نرى المجال لذكرها متوفراً .*

---

* Sexual Life of Woman , by Kisch :

الفصل التاسع

المقارنة بين العادة السرية والاتصال الجنسى

لعل القارىء قد أدرك مما مضى شيئاً ولو ضمنيا عن الفارق بين « العادة السرية » و « الاتصال الجنسى » وتكملة للبحث قد افردت هنا فصلا للمقارنة بينهما .

والاتصال الجنسى وسيلة بيولوجية للتعبير عن البواعث الجنسية وهو يتألف من عناصر مختلفة عبارة عن ضغط جسدى مع الشعور بعاطفة الحب ، ثم تفهم الزوجين القيمة الروحية للعلاقة الجنسية. أما العادة السرية فهى وسيلة أو منفذ ناقص لابراز مشاعر الشباب التناسلية ، وتتم عمليتها اما بتوفر عامل التخيلات وإما بانعدامه . ففي الحالة الأولى يجد الشاب منها وسيلة أو منفذاً لاحساسانه. اما فى الحالة الثانية فليس وراءها سوى التخفيف من حدة الضغط الجسدى من الفاعل الكيميائى لافرازات الغدد وهى لذلك لا تعتبر تنفيسا للضغط النفسى نتيجة عدم توفر الشعور بالحب (الناحية الروحية) وهو أهم عامل فى الغريزة الجنسية ولذا فالعادة لا تعوض ابداً عن الاتصال الجنسى، الذى حتى فى الافراط فيه لا ينتج منه فى حد ذاته أدنى ضرر. فى حين انه لا يمكن للشاب المثقف والأديب أن يفرط فى ممارسة العادة الا ويحس بضيق واضطراب والشعور بصغر نفسه وحقارتها وكل من درس حالات المرضى الذين من هذا النوع لا يسعه

الا التسليم بأن النتائج النفسية (بصرف النظر عن النتائج البدنية) لممارسة هذه العادة بالغة الأذى .

من ذلك كله يتضح للقارىء انه ليس بين العمليتين أى تجانس أو شبه ، فعناصرها مختلفة ، ووجهة النظر التناسلية إزاء كل منهما متباينة ، ونوع الاحساس والنتائج سواء كانت موضعية أو عامة تختلف فى كل منهما عن الآخر .

والعادة تبدأ مع الأحداث فى مطلع حياتهم ، فهى لذلك عرضة للمزاولة المفرطة أكثر من الاتصال الجنسى ، وهى تفتقر الى العوامل المثيرة القوية لاتمامها . ولأنها احدى عمليات عهد الطفولة فهي لا تثير فى الأحداث عوامل التناسل بل يكون محور اللذة فيها مقصوراً على التخيلات بدلا من الأمور الحقيقية (Reality) والتخيلات كما قلنا من مميزات عهد الطفولة ولذا فممارسة العادة تعتبر تقهقر يعود بالنفس الى مرحلة الطفولة . ومن نتائجها أن الغلام الذى يمارسها يستشعر الكآبة والقلق ، فى حين أن الاتصال الجنسى يعقبه الاحساس بالسعادة والراحة كما انه يصل إلى الغاية البيولوجية الكاملة * ، لا سيما حين تكون نظرة الزوجين لهذه العملية نظرة اجتماعية ، كالرغبة فى ازدياد الحب بين الزوجين ، والميل إلى انجاب النسل ، بينما العادة السرية وسيلة أنانية ليس وراءها سوى اشباع اللذة . على أن هنالك حالة يكون فيها الاتصال الجنسى مماثلا للعادة السرية وهى — كما قلت قبلا — عندما ينعدم

* Modern Treatment of Nervous and Mentel Diseases by White and Jeliffe .

التوافق بين الزوجين وحين لا يكون بينهما حب قوى متبادل أو يكون فيها القذف من الخارج لمنع الحمل .

وهناك من بين المتزوجات (خلافا للقاعدة العامة)من ترجح عندهن كفة العوامل الشهوانية على العوامل العاطفية . والمرأة التى من هذا النوع تميل الى اشباع الاحساس فقط، فاذا ماتزوجت من رجل به نقص تناسلى (كسرعة القذف مثلا) فانها تلجأ الى العادةالسرية للحصول على اللذة التى تخفف من حدة الضغط الجسدى فتشعر بلذة وسعادة منها إذ تطول المدة فيها عن الاتصال الجنسى مع زوجها . كما أن المرأة التى تبغض ان تحمل وتربى ، تفضل ممارسة العادة على الاتصال الجنسى واذا لم يكن لديها ضمير يؤنبها على ممارستها فقد تنجو مؤقتا من الامراض النفسية والعصبية كما انها لاتميل الى ابطالها . ولعل من السهل أن نفهم السبب فى شذوذ حياتها التناسلية وعلاقتها بزوجها .

ومن بين النساء ايضا من يتوهمن ـ نتيجة أخطاء التربية الأولية فى الصغر ـ انهن ضحية عملية الاتصال الجنسى إذ يزعمن خطأ أنه مصدر لذة للرجال دون النساء . ولذا فهن يفضلن العادة السرية على الاتصال الجنسى .

ومن الصواب أن نقول إن الخوف الشديد عند المرأة يولد فيها فقدان العاطفه ويجمع معظم الكتاب على أن إدمان العادة يتخلف عنه برود الاحساس والعقم عند النساء وضعف تناسلى عند الرجال ويعقب ذلك أعراض لأمراض نفسية شديدة نتيجة اضطراب حياتهما التناسلية .

(الفصل العاشر)

(علاج العادة السرية)

يؤسفنا أشد الأسف ألآ يعنى أولو الأمر فينا بتوفير دراسة « علم صحة التناسليات » دراسة فنية دقيقة مع ما وصل إليه الغرب فى هذا المضمار من تقدم محسوس لا سيما بعد الدور الذى قام به الأستاذ الكبير « فرويد » ورفاقه حين اماطوا اللثام عن كثير من الحقائق الجوهرية الخافية . وما دام الأطباء والمعلمون المثقفون يرون انفسهم مضطرين للأخذ بأيدى الشباب ومده بالنصائح النافعة هداية الى اقوم السبل لمجانبة العادة السرية فقد تعين عليهم ان يلموا إلماما صحيحاً بكل مراحلها وتطوراتها . وها نحن هنا نتحدث عن واجبات الطبيب والأب والمعلمين .

واجبات الطبيب : —

ان الالمام بالطب النفسانى ولو قليــلا ، ذو أثر بارز فى تفهم حقيقة هؤلاء المرضى ، ولعله من البدهى أن يشير الى أن الواجب يقتضى عدم تقديم أية نصيحة لهم تتعارض مع المثل الادبية التى تواضع عليها الوسط ، فتترك أثراً سيئاً فى ميولهم الادبية .

ولسوء الحظ أنه قد يشــار على بعض الشبان بالافراط في الاتصال الجنسى (الغير شرعي) بدعوى أنه يفيــدهم فى علاج بعض الأمراض العادة السرية فى حين انه ليس وراء هذه النصيحة سوى الأذى البالغ .

وهناك فريق من الاطباء يشير بالزواج كوسيلة للاقلاع عن العادة ، لكنها أيضا فكرة خاطئة منكرة ، شديدة الخطر على الزوج والزوجة . فاذا كان ذلك هو الباعث على الزواج ، الزوج فى هذه الحالة ليس مقبولا ولا منتجاً ، كما انه لا يؤدى إلى حياة زوجية ناجحة .

وانما أفضل طريقة هى أن يتفهم الشاب الحقيقة الخاصة بالعادة السرية وتطوراتها وحذار من المبالغة فى الكلام عن اضرارها ، لأن المبالغه ضرب من المساوىء والنتائج المؤذية .

ونظراً لأن كل مريض تختلف حالته عن الآخر ، فعلى الطبيب أن يعنى بدرس كل حالة على حدة دراسة وافية ، وسلاحه فى ذلك علمه ورائده عطفه ورفقه . وهذان الامران هما خير معوان للطبيب والمعلم فى معالجة هذه الحالة ، وذلك لأن المريض يسهل عليه أن يصرح بمشاكله اذا آنس من الطبيب عطفا ورفقا . وإلا فانه يظهر تبرما من كل سؤال يوجه اليه ، لأن وجهة النظر التى يتخذها الطبيب أقوى أثراً من الاسئلة ذاتها . كما يجب على الطبيب أن يلاحظ ألا يشعر مريضه بالضعة والمهانة بسبب هذه العادة وألا يذكر له شيئاً من شأنه مضاعفة الشعور بالذنب الأدبى واليأس القاتل ، أو أن يزيد من مخاوف لا مبرر لها عما تسببه العادة من الضعف والتهدم فى جسمه .

ومن الضرورى أن يبين الطبيب للمريض كيف يعمل على تحويل نشاطه الجنسى وتوجيهه إلى مسالك غير تناسليه تكون بمثابة منافذ لهذا النشاط ، وهذه الوسيلة يتبعها الشبان الاصحاء المثقفون

من تلقاء أنفسهم . ثم على الطبيب أن يشجع الشاب على مغالبة هذه العادة ، مؤسساً نصائحه على الدعائم الأدبية والرغبة فى ارضاء الوالدين وان يذكره بأنه بهذه الطريقة يكون قد تخطى مراحل الطفولة وأقبل على مرحلة المراهقة . وان يشجعه كذلك على تنمية الاحساس بالرجولة والكرامة وذلك لأن كل شاب عادى يتمنى أن يفوز بحب والديه واحترام زملائه ويبذل أقصى جهده لهذه الغاية حتى يتمتع بصحة عقلية كاملة .

ولا يفوتنى أن أكرر الرجاء لتجنب المبالغه فى الكلام عن نتائج العادة ، ويكفى أن يتعرف الشاب حقيقتها وأن نحوطه بالوسائل العملية لانماء ضبط النفس وتغذية الحياة الأدبية فيه ..

واجب الآباء والمعلمين :—

لاشك أن كثيراً مما ذكرناه عن واجب الطبيب يمكن أن يستعين به الآباء والمعلمون . على أنى أقصد أن أخصص لهؤلاء شيئاً عن النصائح والملاحظات .

وعلى الآباء أن يعنوا عناية خاصة بتعرف هوية رفاق أبنائهم وأن يحيطوا أنفسهم علما بنوع التفكير الذى يفكر به أولادهم ، والآمال التى تسيطر عليهم ، وليذكر الآباء والامهات أن الصراع العقل الباطنى ازاء عملية كالعادة السرية والخوف من نتائجها يبلغان فى ضررهما اكثر مما تبلغه العملية ذاتها ، ولا سيما إذا أزمنت معهم ولكن لسوء الحظ نرى أن معظم الآباء لايهتمون إلا بملاحظة الحركات الظاهرة .

وهنالك حالة أخرى ، فكثير من الآباء الذين يحسنون الظن باولادهم الى حد كبير ، يتجاهلون أو يغفلون وجود العادة السرية عندهم ، بل الواقع أن جانبا كبيرا منهم لا يميل الى تصديق هذه الحقيقة والاعتراف بها ، وهذا لا يمكنهم طبعا من الاخذ بناصر أولادهم فى جهودهم المستقبلة لمجانبة العادة . وهناك أيضا آباء آخرون يثورون (دون مبرر) لمجرد علمهم بانأولادهم يمارسون العادة السرية لعدم درايتهم بذيوع هذه العادة ولا عن مظاهرها من الناحية البيولوجية شيئاً .

ولما كان لدى معظم الأمهات وجهة نظر وفكرة خاطئةعن العادة فهؤلاء لا يصلحن مطلقالأن يكن لأولادهن معوانا للتخلص منها . وتنطبق هذه الظاهرة على المعلمين وغيرهم من رجال التربية إذا كانت لديهم مثل هذه النظرة عن العادة .

أما الخشونة والكلام القاسى الذى لاضرورة له ، والتأنيب الشديد غير اللائق كل ذلك من شأنه ان يقود الشاب إلى الدفاع عن نفسه وتبرير عمله ، وتنتج عن ذلك الرغبة فى الانفراد وتجنب الاجتماعات . لذلك يجدر بذوي الشأن الا يروعوا الاولاد لئلا تسوء العاقبة ، وألا يحاولوا أن يقيدوا أيديهم أو أن يهددوهم بقطعها (بدعوى أنها أداة العادة السرية) إذ كم من النتائج السيئة نشأت عن هذا التصرف الخاطىء بل يحسن في هذا الميدان أن تقودهم الى استخدام أيديهم فى وسائل أفضل متحاشين التهديد والوعيد .

ثم نقدم لهم أنواع المغريات كالجوائز مثلا حتى نستفز فيهم الرغبة فى بذل جهود شريفة وأعمال سامية . ولهم فى الرفق والعطف خير معوان على تكوين الثقة الذاتية . أما لغة التحقير والازدراء فانها تنشىء المقاومة والعناد التى بدورها تخلق الملل مع محاولة تبرير كل عمل .

الثقافة الجنسية :—

يعرف جميع الباحثين أن فى الاطفال على بكرة أبيهم ولعاً طبعيا بالوقوف على كل مايتصل باعضائهم البدنية والوظائف التى تؤديها . فاذا شاء الآباء أو المعلمون أن يقدموا للاولادالنصيحة الصالحة القويمة ، فعليهم أن يتعرفوا الحقائق الخاصة بالنمو التناسلى النفسى فى الطفل . والفكرة المثقفة عن الحياة التناسلية . وعلىذلك اذا تولى الاشخاص الأكفاء تلقين الأولاد هذه الفكرة فى الوقت المناسب ، فان ذلك يفيدهم شر التفكير العاطلالمؤذى، وشر الاهتمام والانشغال بالمسائل الجنسية فى مستقبل الأيام . انشغالا لامبرر له .

لكننا إذا قابلنا أسئلة الطفل الجدية بالخشونة والتهديد فاننا نضطره الى الالتجاء الى مصادر لايعول عليها يستقى منها معلومات هى فى الغالب خاطئة مضلله . ومن تلك المصادر يعرف كثيراً من الاشياء والحقائق التي يجب أن تظل مكتومة عنه حتىدورالشباب العاقل ، والتى تكون سبباً في شقائهوتعاسته بسبب النضالالنفسى الذى تثيره تلك المعلومات .

فان احجام المعلم والمربى عنالتصريح بهذه الحقائقالعلمية — فى

الوقت الذى تتحدث فيه الصحف السيارة وتشير الصور المتحركة الى حياة البذخ والمدنية والقصص الغرامية المثيرة بطريقة رديئة مكشوفة — لا يتفق مع منطق الواجب ، بل هو خطأ لا يغتفر . وفضلا عن ذلك فان ذكر الحقائق الصحيحة عن ظروف الطفل لا ينشأ عنه مطلقاً مضاعفة لمشاكله كما يتوهم البعض .

واذا فشلنا فى تعليم الشبان مايعوزهم ، فاننا — بسبب جهلهم وسوء معاملتهم — نضع فيهم بذرة لكل أنواع القلق والاضطرابات فى مستقبل حياتهم واذا تقدمت الأيام — وخصوصاً باولئك الذين تظهر عليهم أمراض نفسية — فمن المحتمل أن يفقدوا الثقة فى من هم اكبر سناً ، بل قد يتبرمون بهم لأنهم لم ينيروا لهم الطريق الصحيح في الوقت المناسب .

ومع أن العادة السرية منتشرة بين التلاميذ ، فانه قلما تناولها المسؤولون بطريقة تحول بين التلاميذ وبين ممارستها بل على العكس من ذلك تراهم بصفة عامة ينظرون الى هذا الموضوع كشىء قذر دنس . على أنه من المسلم به أن المعرفة وحدها ليست كفيلة بابطال ممارسة هذه العادة ، إذ ينبغى أن يكون الشاب راغباً رغبة أكيدة فى التخلص منها نهائيا فان الشاب المريض نفسياً يظل يمارسها حتي بعد تحذيره ضدها . غير أنه من الضرورى أن نراعى الدقة والحذر فى مقدار المعلومات التي نلقنها للاولاد إذ أن من المعلومات المفاجئة أو المبالغ فيها (ولاسيما اذا لم يفهموها ولم يستسيغوها) — تولد انقلاباً حسياً فى نفوسهم ، ولا يجدى هنا التذرع بحسن النية .

وقد اختلف جميع الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع فى كيفية تثقيف الأولاد فى المسائل الجنسية. فيرى بعضهم الاكتفاء بالمعلومات السطحية لمجرد إشباع حب الاستطلاع، ويرى آخرون الصراحة المطلقة، كما يرى غيرهم الاقتصار على لغة الرمز والتمثيل. على أن الخطة القويمة هى، كما قلنا، أن نتناول كل حالة على حدة. ولا ننس أن الامتناع عن تزويد الأولاد بالمعلومات الكافية - أمر ضار جداً. ولكن ليكن هذا قاصراً - ولا سيما من حيث النتائج الناشئة عن ممارسة العادة السرية - على الشبان الذين تعوزهم تلك المعلومات، بسبب كفاحهم وشكوكهم ومخاوفهم.

واذا شئنا أن نفيد أولادنا فى هذا السبيل، فلنتبع معهم الطريقة الفردية، بمعنى أن نعلم كل ولد على حدة، فان هذه الطريقة فضلا عن تأثيرها على الطفل من الناحية الوجدانية فانها أنفع وأجدى من الطريقة المشتركة. والاطفال بطبيعة تكوينهم يتأثرون بالناحية الوجدانية اكثر مما يؤثر فيهم معرفة الحقائق ولنذكر فى الوقت عينه أن المعلومات الواحدة التي تعطي بالطريقة المشتركة (نظراً لاختلاف كل شخص عن الآخر) لا يتسنى لجميع الأولاد فهمها.

وخير وسيلة نتبعها فى هذا التهذيب هى أن نسترشد بعمر الطفل ومقدار ذكائه وشعوره وميوله - وذلك بواسطة نوع أسئلته وأنا أخص بكلامى الطفل لأنه من السهل أن نصل معه بالنصح والارشاد الى النتائج التي نرمى اليها. أما الأحداث الذين يتمسكون بالعادة السرية فهؤلاء يحتاجون الى وسائل الطب النفسى لا إلى مجرد النصيحة الكلامية يسديها رجال التربية العاديون. ولنذكر فى

تعليمنا أن الواجب يقتضى أن نلقن الأولاد لا الحقائق الفسيولوجية فحسب ، بل نواجههم بالاعتبارات الأدبية أيضاً . واذا وفقنا الى تنظيم هذه العادة فى الشاب المراهق تنظيما علمياً فان ذلك يفيد فى نموه الاخلاقي .

التعاليم الدينية :—

نعلم بالطبع أنه ليس فى مقدور كل إنسان أن يقمع البواعث الجنسيه بنفس السهولة التى يقمعها بها غيره ، وانه ليس في متناول الجميع أن يكونوا فى مستوى واحد من هذه الناحية . على أن كل إنسان مطالب يبذل أقصى جهده فى هذه الغاية . وفى التعاليم الدينية الأدبية القويمة خير سياج يقى الشبان الطرق الصبيانيه التى يلجأ اليها المتدينون تدينا زائفاً لاظهار غرائزهم الجنسية . إلا أن التدين الصورى الزائف هذا لايجدى فتيلا فى هذا السبيل . أما التدين المخلص وما ينميه فى الشاب من قوه التفكير السامى ، فهو خير معوان على الاقلاع عن العادة إذ هو بطبيعة الحال نوع من التهذيب الراقى .

وما دامت معرفة الحقائق الخاصة بهذه الأمور ليست كافية وحدها لضبط الميول الشهوانية فى الشاب ، وجب الاستعانة بالتدين الادبى فى معالجة مشاكله الجنسية . ذلك أن معرفة الحقائق نافعة في دعواها بان الافضل للشاب أن يسلك اتجاها يعرف عنه ولو الشىء اليسير ، من أن يتجه إلى طريق خافية المسالك ، مجموعة يظلام حالك ، لان الجهل المطبق لا يمكن أن يكون حامياً للطهارة والعفة . على أن المدنية وان كانت تطالب الفرد بشىء من التخلى

عن نشاطه الانتاجي ، إلا أنها لا تطالبه فى الوقت نفسه بقمع وكبت البواعث الجنسية بان ذلك مستحيل كاستحالة إيقاف الشمس من برجها ، ولو أنه من المسلم به أن المظهر الجنسى البيولوجى قد يتأخر فى الأحداث المراهقين بضع سنين . ولكن اذا شئنا ان ننفذ ونطبق وسائل القمع والروادع العادية التى تفرضها المدنية ، فمن الخطأ والأذى البالغ أن ندفع الشاب لأن ينظر الى كل ما يتصل بالحياة نظرته الى شىء حقير قذر . فذلك وهم وتصور خاطىء ، لأنه لا بقاء للحياة اطلاقا بغير الغريزة الجنسية فالقول انها حيوانية منحطة قول خاطىء مضلل - وتعليم النشء على ضوء هذه النظرة يخلق فى دور المراهقة أمراضاً نفسية تناسلية خطيرة .

إن للقدوة الحسنة تأثير قوى فى نفس الطفل وتفكيره اكثر من تأثير النصيحة والتحريض . وهذه نظرية نفسية صحيحة ، ولذا نجد أن البيئة الراقية ، والحياة الاجتماعية الشريفة - بالاقتران مع التدين الصحيح خير معوان للطبيب فى الحيلولة بين الشاب وبين ممارسة العادة السرية بكيفية غير حكيمة .

المنافذ الاجتماعية : لا يرى الشبان البالغون الذين لهم صلة بالاوساط الاجتماعية العديدة ، والذين يصادقون رفاقاً ذوى ميول أدبية سامية ، أية حاجة إلى الالتجاء إلى العادة السرية بعكس أولئك الذين يحيون حياة خاملة متقاعسة لا لذة فيها - حياة العزلة والانفراد وخمول الشاب مظهر من مظاهر استعمال العادة المذكورة . لذلك وجب على الشبان الأصحاء ان يستغلوا نشاطهم

بجد متواصل فى الدراسة والالعاب الرياضية وكل أنواع الرياضة العملية ـ وذلك فى صحبة رفاق صالحين . والمنافسة فى الالعاب وسيلة نافعة فى التخفيف عن وطأة الضغط العصبى .

والموسيقى وغرس الفنون والآديبات القويمة ـ كلها عون على تنمية الاخلاق الشريفة . على أنه ليس هناك أفضل من الجهد الشاق فى الاعمال الانتاجية المبهجة . وفى الاجمال استطيع أن أقرر ان كل انواع المباهج البريئة هى بمثابة منافذ للنشاط الانتاجى فاذا تسنى للآباء ان يوفروا لأولادهم الكثير من هذه المباهج فانهم يحولون بينهم وبين وقوعهم فريسة للعادة السرية .

وعلاج هؤلاء المرضى يتوقف غالبا على خلق ملاذ جديدة ووسائل جديدة للحياة المبهجة . وفضلا عن ذلك فعلينا ان نحمى الشاب من عشراء السوء وما ينتج عن مصادقتهم . والحقيقة المأثورة القائلة بأن « معاشرة من الاخلاق لهم تفسد الأخلاق الجيدة » ، تصدق بالاكثر على نتائج تلك المعاشرات من حيث الميول الجنسية .

وفضلا عن ذلك يحسن أن يسير الطفل على نظام يومى خاص فى الغذاء ، وان يحال بينه وبين تركيز افكاره على مصالحه الشخصية . هذا وليحرص الآباء على ان يحيا أولادهم حياة صالحة نظيفة نشطة . وان يعلموهم الذهاب الى الفراش فى حالة هادئة وبعد إجهاد معقول . ثم لاينسوا ان التململ او التكاسل فى مغادرة الفراش عادة مضرة جداً ولما كان الاحداث يمعنون فى التخيلات الشهوانية (عند تكاسلهم فى مغادرة الفراش) فى هذه السن لذلك يحسن مجانبة هذه التعود . التى ينمو فيها الحب ، أى الميل الى شخص

من الجنس الآخر وهذا الميل كثيراً مايستخدم فى جعل عواطف الشاب ذات صبغة روحية ، وفى تحويل رغباته واهتماماته من دائرة ميوله الشهوانية .

على أنه كلما أزمنت هذه العادة ، كلما استغرق التغلب عليها زمنا أطول . ولا سيما اذا اقترنت بها ميول واتجاهات رديئة تحول بينه وبين الاشتراك الفعلى مع الأب أو الطبيب فى الاقلاع عن هذه العادة . ومن واجب الآباء أن يستخدموا هذه المشجعات التى تؤثر تأثيراً كاملا على الطفل ـ سواء كان هذا المشجع هو التدين او الاعتداد بالذات او الرغبة فى الاحتفاظ بالكرامة ومحبة الغير هذا ويمكن تشبيه عقل الطفل كزهرة البستان ، فمع أن البستاني يسهر على حديقته ، فالأمر لايخلو من ظهور بعض الحشائش الطفلية فاذا أغفل هو أمرها فانها تطغي على الازهار . والأخلاق الصالحة كالزهور النضرة ، بينما الاخلاق المريضة الفاسدة أعشاب خطرة فاذا جاز ان نتوقع من الزهرة ان تعني بنفسها وتحتفظ بجمالها ورونقها فى عيون الناظرين كان لنا إذا أن نتوقع نمو الاخلاق الفاضلة فى الطفل دون أن نرعاه بالمؤثرات والارشادات القويمة ، وأن نتوقع خلوه من الاتجاهات الخطيرة والميول الشريرة فى مقتبل الحياة . وإنها لأعجوبة خارقة للعادة ان يكون بعض الاطفال الذين نشأوا نشأة غير نبيلة ، لا يزالون يحتفظون باستقامتهم وصلاحهم .

٦ ـ العلاج على الاساس البدنى :—

لئن كنت أشاطر رجال البحث الحديث رأيهم فى ان قيادة

وتنظيم العادة السرية يجب ان يكون على أساس علم النفس ، إلا أنه لا يفوتني أن أشير الى مراعاة الاساس الطبي الدقيق في جميع الحالات. كما أحتم ضرورة علاج كل داء أو نقص ـ عام كان أو موضعي ـ يدل على وجود هذه العادة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على أنني احب ان اؤكد ان العوامل الطبية والجراحية انما هي في معظم الحالات مجرد إسعاف وقتي في علاج هؤلاء المرضى ، إذ العلاج النفسي هو الأهم ، بينما العلاج البدني مطلوب بقدر محدود.

ومع ان افرازات الغدد الصماء ذات أهمية خاصة في تنمية الاعضاء التناسلية ، لكننا في ضوء معلوماتنا الحاضرة نشك في مقدار النشاط الانتاجي الذي يتوقف على هذه الغدد . ومع أننا في شك من تأثير الهرمونات على الباعث الجنسي، فاننا لا نشك في ان محاولة ضبط هذه العاده بخلاصة الغدد وحدها ـ مهزلة أي مهزلة ـ لان اضطرابات الاخلاق لا يمكن علاجها بمثل هذه الطرق السهلة

من ذلك نرى أنه لا توجد عقاقير أو طريقة سريعة لعلاج هذه العادة . انما الانتصار عليها يأتي بعد جهاد ونضال طويلين. لكننا نشدد في وجوب تنظيم المعيشة تنظيما صحيحاً ، مع تجنب المثيرات الشهوانية .

وقد يوصي بعض الكتاب بالسهر الطويل في الليل لمراقبة الطفل ومنعه من ممارسة العادة ، لكنها نصيحة غير مجدية . إذ من المستحيل ان يظل الاب مع ابنه كل لحظات الليل والنهار حتى يحول بينه وبين تلك العادة . واذا لم يتعرف الآباء حالة أولادهم الأدبية والذهنية فان الموقف يكون خطراً كما ان استخدام الوسائل الآلية كربط الايدي مثلا ولا سيما مع الفتيات اللاتي يمارسن هذه

العادة بحك الفخذين،طريقة سخيفة : اذا كيف يتسنى لهذه الوسائل أن تمنع التخيلات الفعلية الرديئة ؟

ولكن لنوصى الشبان المراهقين ان يعافوا المسكرات بأنواعها لانها تؤثر اول كل شيء علي الضوابط الادبية والذهنيه وتضعف قوتها . وإذا تذكرنا ان العامل الاول فى علاج هذه الحالة هو تقوية الميل الادبى ، صح لنا ان نؤمن باهمية الامتناع عن المسكرات.

العلاج الطبي :— سأذكر للقارىء فى هذا المكان جانباً من الاحتياطات الطبية البحتة التى يوصى بها كثيرون من رجال التربية كعلاج لهذه العادة . وهى قد تساعد احيانا فى هذا الصدد إذا اقترن استعمالها بمبادىء العلاج التي ذكرناها ـ غير انه لا ينبغي الاقتصار عليها .

ا ـ الحمامات : بالماء البارد ،والدوش ، والسباحة،والاستحمام باستعمال الاسفنج .

ب . الكهرباء : وهذه قد برهنت على عكس ما كان ينتظر منها في معظم الحالات .

جـ . العقاقير : المسكنة مثل البرومور والكافور والبلادونا الخ . على ان نتيجة العقاقير ليست كما يتوهم الناس علي الأخص اذا استعملت وحدها . فكل ما تستطيعه هو ان تخفف التهيج دون ازالته . وبمجرد ان ينتهى تأثيرها تعود الدوافع للعادة .

ويقول أحد الاطباء ان نوع الطعام الذى يتناوله الطفل لا يؤثر علي الباعث الجنسى إلا تأثيراً سطحياً . ذلك لأن قوة الباعث متصلة بالحالة الصحية العامة للطفل لا بالطعام . والطعام

الخشن مدعاة للتبهج في حالات كثيرة . كما ان انواع المسهلات لها قيمتها فى هذا الغرض : فأملاح المغنيسيوم مخدرة مسكنة فضلا عن كونها سهلة . ثم لا ننس نظافة الاعضاء التناسلية ، بما لها من تأثير قوى .

العلاج الجراحى الموضعى :—

ان فائدة الجراحة فى معالجة العادة السرية محدودة سواء بالنسبة لعدد المرضى الذين يحتاجون لهذا العلاج أو بالنسبة لدائرة العلاج نفسه لأن معظم العمليات الجراحية قاصرة على الاعضاء التناسلية الظاهرة وهذا لا يفيد مطلقاً فى علاج العادة

ولعل العملية الجراحية الأكثر أهمية عند الذكور هى قطع الغلفة فى بعض المسيحيين بدعوى منع التهييج العضوى الموضعى . ولكننا لاحظنا أنه اذا أزمنت العادة فى الطفل فان هذه العملية لا تفيده فى هذا السبيل إلا فى القليل النادر . ولا بد حينئذ من إلحاقها بالعلاج الفردى الذى أشرنا اليه .

أما ختان البنات فهو ذو خطر شديد ، وليس بين الاطباء من يوصى به كعلاج للعادة السرية أو لمنع تهييج المرأة . كما هو الشائع بين المصريين — بل ان معظم ذوى الرأى فى الدوائر الطبية يعيب ويشن الغارة عليها . ولقد سبق ان ذكرت ذلك فى كتابى « الامراض النفسية وعلاقتها بالغريزة الجنسية » وختان البنت ليس من الدين فى شىء كما يعتقد معظم الناس ، فلقد أكد لى بعض أئمة الدين أنه لا يوجد نص صريح بها .

الفصل الحادى عشر

ملاحظات ختامية

سوف لا أضمن هذا الفصل شيئاً جديداً يتصل بالبحث حيال « العادة السرية » وتطوراتها ولكننى سوف أذكر ملاحظات ودراسات سبق تكلمنا عنها أود أن أعود اليها لاهميتها .

يكفى معظم الاشخاص النصيحة الموجزة إزاء « العادة » . أولئك هم الذين لا تظهر عليهم بوادرها ، والذين ـ لسبب ميولهم الشخصيه القويمة ، والطابع السليم الذى ينطبعون عليه ـ يقبلون على مرحلة النمو التناسلى النفسى الكامل بقليل من الجهود المعتدلة هذا ، والكفاح المتزن بالمسائل الجنسية يختلف من حيث قدره وخطورته فى شخص دون آخر . فهؤلاء رجال الأدب والفلاسفة لا يرون فى هذه المسائل مشكلة تعترضهم ، اذ لهم من مشاغلهم مايحول كثيراً دون التفكير فيها وهنالك فريق آخر تشتد فيه عوامل الكبت لشهواتهم التناسلية ـ وأفرادهذاالفريق يندفعون فى الافراط فى الاكل ويجعلون هذا الافراط شاغلهم الاكبر ومبعث لذتهم . بديلا عن تلك الشهوات ، وفريق ثالث يتعذر عليه أن يتسامى بالغرائز الجنسية الى منافذ ليست لها الصيغة التناسلية فينشأ فيه بسبب عدم القدرة على هذا التسامي توتر نفسى حاد متطرف ينشأ عنه « ضغط الدم » (١)

---

(١) كما يقرر العلامة ميجر John F . W . Meagher M . D

وأمثـال أفراد هـذا الفريق يجب أن يتجنبوا الظروف التى تثير فيهم شهواتهم التناسلية والشـاب المكتمل ـ لا يعني فى هذه المرحلة بمظاهر الاثرة الطفلية أو الشهوة الميكانيكية التي ترجع إلى عهد الطفولة ، فقد نسى العادات التى كانت مبعث لذة له فى عهد الطفولة واذا لم تظهر عليه بوادر مرض نفسى فهذا دليل على أنه قد نجا بحياته من تهديد تلك الامراض أما الشخص العليل (نفسيا) فانه يرجع الى مظـاهر الشهوة الذاتية الطفلية ، لـكن هذه المظاهر لا تتم إلا بطريقة الايعاز projection . وقليلون هم الذين يعوزهم الأمر الى مقدار كبير من العناية والعلاج ولفترة طويله من الزمن

ولا ننسى أن فكرة الاتهام الذاتي فى الأحداث الكبار ويكون اساسها العادة السرية ولو بطريقة غير ظاهرة فواجب الطبيب ازاء هذه الحالات المختلفة أن يعنى بدرس شخصية المريض. لأن الشخصية تحدد العلاج كما تحدد الحالة . ويتضح له أن المرضى المعتوهين والذين ينتابهم الصرع هم نوع من الصعب علاجه . اذ أنه فى خلال الأدوار الحادة التى يصل اليهـا المرض العقلى لا يمكن الحصول على المعلومات الكافية من المريض ، الأمر الذى يضاعف متاعب الطبيب ، فان أمثال هؤلاء يهربون من الحقائق ويودون ان يحيوا في عالم الخيال

وقد راينا فى العادة السرية احد مبررات الانتحـار المقترن بالشعور المتواصل بالذنب والتقزز من النفس. كما راينا انه يهون

على الاشخاص الذين يرجعون بعواطفهم الى مرحلة الطفولة ويأسهم من الحصول على محبه وعطف من حوله أن يتخلصوا من الحياة بطريقة الانتحار .

وقد رأينا المصابين بجنون المراهقة يميلون الى الافراط فى ممارسة العادة السرية ومرجع ذلك الى حياة التخيلات الطفلية — الاثرة والشهوة الذاتية . لذلك لن يصلوا الى الدور الذى تكون لهم فيه عاطفة الحب للمحبوب (Object - Love) وحتى لو وصلوا اليه فسرعان مايهجرونه . ومن حسن الحظ أن افراد هذا الفريق قليلون

وقد برهن أحد أعلام الطب النفساني (Pfister) أن جانباً من الأحداث الذين يفرطون فى ممارسة هذه العادة لا يكترثون في الغالب بنصائح الغير ومن أبرز مميزاتهم أنهم قلما يرغبون فى العمل كما نلاحظ فيهم عدم الانتباه ، وعدم تركيز الفكر ، والطيش «والشقاوة» وقلة الانتاج العملى، والاعياء السريع ، وهذه بالطبع نتائج للممارسة المفرطة .

اما اذا استخدم هذه العادة أحد الشبان الكبار ممن يقفون عند حدود الشهوة الذاتية والانانية وحب الجنس لنفس الجنس فمن الصعب استئصال العادة منه . وأمثال هذا الشاب تعوزهم الرغبة العادية فى الحصول على الشخص الذى يثير مشاعرهم وحبهم وقد أظهر التحليل النفسى أن هناك علاقة وثيقة بين الاثرة (Narcisissm) والعادة السرية . وهنالك نوع آخر من الصعب علاجه : وهم الاشخاص الذين تظل فيهم العادة حتى الزواج ،

ولا يرغبون فى الاقلاع عنها . وهؤلاء لايستشيرون الطبيب فى كيفية الاقلاع عنها .

وما قلناه عن العادة فى الطفل والحدث البالغ لاينطبق على الشباب الكبار الذين يكونون قد وصلوا الى دور النمو التناسلى النفسى . فاذا وجدنا بعض الرجال فى الحلقة الثالثة أو الرابعة ــ أو بعضاً من المتزوجين فى هاتين الحلقتين ــ يمارسون هذه العادة، فانهم يعللون هذه العمليـة بكثير من المبررات ، ولذلك لايرون داعياً لأن يتساموا بميولهم الشهوانية الى منافذ أخرى فتراهم لهذا السبب يخترعون كل وسيلة ممكنة لاخفاء الطريقة التي يحصلون من ورائها على الاشباع الاحساسى ــ لعلمهم بأن الهيئة الاجتماعية تنفر من الشيء غير العادى وتثور فى وجه الانحراف عما نعـارف عليه القوم وحتى الاشخاص المصابون بشذوذ تناسلى قد يظلون مستريحين طالما هم يتجنبون التنافس مع الافراد الاصحاء تناسلياً والهيئة الاجتماعية تنتقد بشدة أى مظهر من مظاهر الشهوة الذاتية كما تقاوم الحركات التي تدور حيال حب الجنس الواحـد . من ذلك نرى أن قيام هـذه الميول فى الشـاب المكتمل برهان على توقفه عن النمو التنـاسلى النفسى ، مضـافا اليه فى الغـالب عيوب شخصية فنلاحظ أن صاحبها يركز عنايته على نفسه فقط، وكتمان أفكاره وحركاته عن الآخرين .

واذا حدث أن رفض أحد المرضى أن يصرح للطبيب بالامور المتعلقة بحياته الغريزية ، فمن الصعب مساعدته أو تفهم حقيقة شكواه وهذا ينطبق بصفه خاصة على الاشخاص المصابين بالبارانويا ،

Paranoia الذين يعاني معظمهم كبتا فى ميولهم نحو حب الجنس لنفس الجنس .

على أن معظم المرضى العصبيين لا يصارحوننا من تلقاء أنفسهم بمشاكلهم التناسلية النفسية . بل على العكس يميلون الى التحدث والمناقشة فى مشاكلهم العصبية ، وينسبونها الى الاجهاد فى العمل أو المشقة فى القيام بواجباتهم الاجتماعية مما أدى إلى ضعف أعصابهم أو فقر دمهم وغير ذلك من التعليلات السخيفة .. دون أن يشيروا ولو عرضاً الى الحقيقة الفعلية التى تختفى وراء هذه الأعراض : والناس بصفة عامة يميلون الى التظاهر فيما يتعلق بحياتهم التناسلية اكثر من أى ناحيه أخرى .

وكى يتسنى لنا أن نعمل على تسوية المشاكل التناسلية علينا ان نضع أمامنا أغراضا ثلاثاً : — مضاعفة المقاومة ضد الميول نحو العادة بواسطة هداية الشاب إلى حقيقتها ، فالمعرفة الحقه تبعث فيه الرغبة والطموح والاكثار من المنافذ التى تنساب فيها الشهوة . لأن الشاب المراهق تحفزه رغبته الملحة فى الحصول على الكرامة الاجتماعية الى التغلب على العادة السرية التى وان أزمنت ممارستها ، تعتبر عادة و ليست مرضا ولهذه الغاية شددنا على ضرورة الاستعانة بما هو اكثر من العقاقير لعلاج هذه العادة — لأن العقاقير ليست كفيلة وحدها بحل أزمة الصراع الناشىء منها ولا هي كفيلة الشاب من تفهم نفسه .

وليكن الطبيب على حذر من إهاجة المريض أو المساس بكرامته ولتكن النصيحة التى يقدمها من النوع الايجابى ، أما اذا

لم يكن لديه ماينصح به ، فالأفضل ألا يعمل على اظهار وكشف نقائص المريض . فلكل انسان نقائصه الخاصة ، ومعظم الناس يغالون فى تقدير الصفات التى تنقصهم .فاذاشئناان يكون لنصائحنا قيمتها وتقديرها اللائق ، حق علينـا أن نقدمها قبل مهاجمـة أى اضطراب إحساسى فى الشاب . والاضطرابات التى من هذا النوع كثيرة الذيوع فى الشباب المراهق . منهـا القلق العصبى والطيش والاحساس بالضعف ـ وغير ذلك من المظاهر النفسية فالقلق الذى نلاحظه على أثر الاقلاع عن العادة ، قد يعزى الى الكفاح الذى يدور فى نفس الشاب حيال عامل العودة اليها وعامل فى تجنبها . واستطيع أن أقرر هنا أن الأرق يرجع غالبا الى هـذا الصراع كما أن الخوف من الجنون فى معظم الافراد معناه وجود الرغبة الباطنية فى القيام بأعمال لاتقرها الهيئة الاجتماعية .

هذا وليحاول الطبيب أن ينمى فى المريض الثقة بنفسه والشجاعة ومراعاة آداب المجتمع والمسؤولية ازاء المطالب الاجتماعية. وأن يعطيه فكرة عن العلاقة الكائنة بين الطفل وأبويه، وألا يخلق فيه إحساسا بالتواكل الذى يولد فيه عدم المقدرة والتردد وعدم الطمأنينة.

والطبيب مكلف أدبياً بعدم تقديم نصيحة تتنـافى والعرف الاجتماعى والأدبى ، أو تمس شرف المهنة . وليـذكر أن مجرد إبطال الكبت الجنسى الذى يخامره إحساس شديد بالذنب لا يرضى أن يسلم بأن الاعتدال فى ممارسة هذه العـادة لاينتج عنه مرض بدنى يذكر ، وأن النتائج لاتتعدى الناحية النفسية والأدبية .أما الاشخاص الذين لا يساورهم الشعور بالخوف أو الذنب، فان العادة

لاتترك فيهم سوى قليل جداً من النتائج . كذلك نجد تقريباً أن كل الافراد البالغين الذين يتخذون الصحة هدفاً لهم ، فينفرون من الظروف القهرية التي تلجيء غيرهم الى ممارسةهذهالعادةواكرر هنا ماقلته قبلا من ان الزواج لايمكن ان يكون وسيلة صالحة لعلاج هذه العادة . ذلك أنه فضلا عن الاعتبارات المعقولة التى أشرنا اليها قبلا ، فمن الملاحظ أن بعض من يمارسونها لايميلون كثيراً الى الجنس الآخر باعتباره محور الحب .

ولعل القارىء يذكر انني أشرت الى أن العلاقة الجنسية غير المشروعة لاتصلح لعلاج الامراض التناسلية وذلكلأنالمقاومات الأدبية تحول دون الاشباع الروحي الفعال . ولهذا السبب ، وبصرف النظر عن التأثير البدني ، فان الكفاح يأخذ مجراه فى فى الشاب ،وتظل عواطفه محبوسة مكبوتة ، ويزداد فيه التهيج النفسى والكآبة والضيق (النرفزة) . فالزعم بأن الاتصال الجنسى كفيل بعلاج هذه العادة زعم خاطيء ونصيحةغيرصالحة أدبياً وغير معقولة طبياً . فان الافراط فى الاتصال الجنسى الغير شرعى له صفة العادة السرية ، وليس بينه وبين الاتصال الجنسى الشرعى القانونى أى وجه شبه . مثله فى ذلك مثل من يستعيض عن عمل غيرموفق بآخر غيرمرغوب فيه ،يخلف لا مراء أمراضاً نفسية عصبية . والأمراض العصبية التناسلية ــ كغيرها من الأمراض العصبية الاخرى . تحمل معها شيئاً كثيراً من تراث الماضى البعيد .

لكن الطبيب يحسن عملا بنزع الروادع الخاطئة والافكار

الفاسدة عن الحياة التناسلية ونموها . ولقد أظهرنا فيما سلف أن الكبت النفسى ، والتهديد الفاسد ـ يتركان أو يضعان بذرة لمخاوف الشباب ، والعنة ، وسرعة القذف وجمود الاحساس وعلى الطبيب النفسى أيضا أن يبذل كل جهده لشفاء القلق الذى يضر الشاب اكثر مما تضره العادة السرية ذاتها

صور استعمال العادة :

قبل أن انتهي من هذا البحث العلمى ، أرى من الضرورى أن أشير الى جانب من أشكال وصور ممارسة العادة السرية ، مما يجب على الطبيب أن يلم بها .

فمن تلك الأشكال ماهو مقنع (masked) ومنها ماهو تعويضي substitutive ومعظم الآباء ليست لديهم أية فكرة عن هذه الحركات المقنعة أو التعويضية مالم يعرفوها من طبيب الاسرة . على أن المريض يجب أن يترك هذه الحركات الرمزية التى يجهل المريض معناها التناسلى وهذه تحتاج فى تعليلها وتعديلها الى لباقة ومهارة.

ومن الخطأ الاعتقاد بان وسيلة استعمال العادة السرية قاصر على الاعضاء التناسلية فقد ذكرنا أن النساء بصفة خاصة لهن مناطق بدنية حساسة قابلة للتهييج غير الاعضاء التناسلية . فنرى بعض النساء العصبيات يجدن فى استعمال الحمامات المهبلية والحقن الشرجية شيئاً من الاشباع التعويضى . ثم أشرنا الى مسألة تحريك الفخذين وكذلك أحلام اليقظة ماهى إلا تعويض عن العادة السرية بعد كبتها وتحويلها من مظهرها الاصلى الى تخيلات لذيذة يلجأ اليها من من وقت لآخر .

وكذلك ماياتيه الاطفــال وبعض الكبار من حركات غير ارادية (Tics) فى الوجه أو فى اليدين الخ وكذا التبول فى الفراش عند الاطفال إلى سن كبيرة ، وكل هذه الحركات تعويض عن العادة السرية . وقليل من الاطباء من يمكنه أن يرجع لهذه الحركات الى أصلها التناسلى .

وهنالك فريق من المرضى تساوره أفكار مخيفة بأن طريقــة جلوسهم أو ركوبهم مثلا تهيجهم ، فيلجأون الى الطرق التعويضية وفريق آخر يمارس العادة السرية بطريقة ميكانيكية، بغير تخيلات شهوانية ـ وذلك بالاستناد الى الطاولة أو يماثلها . ومن هنا نرى أن الشاب الذى يلجأ الى هذه الطرق لا يسلم بان مايفعله هو عمل تناسلى محض .

وكثير من المصابين بالهستيريا يتعذر عليهم أن يتخلوا عن الملاذ الصبيانية فاذا تسنى لهم أن يتركوا العادة السرية ، فاننا نجــد أن كثيراً من الحركات الهستيرية التى تبدو عليهم لم تكن فى الواقع سوى إشباع تعويضي يقوم مقام العادة التى تركوها اختيــاراً . ونفس هؤلاء المرضى اذا تخلو فى آخر الامر عن وسائل التنفيس الاجتماعية فسرعان ما يعودون الى ممارسة العادة السرية بطريقــة مبــاشرة .

ولا يفوتنى أن أذكر بعضاً من أسباب الاضطرابات التناسلية وهذه تنشأ فى الرجل اذا لم يجد فى زوجته موضع شغف وهيام ، أو اذا تحول عنها الى امرأة اخرى وهناك فريق يرغب فى التخلص من سرعة القذف بممارسة العادة السرية قبل عملية الاتصال الجنسى .

كما لا يفوتني أن أحذر الآباء من استقاء معلوماتهم فيما يتعلق بالأمور الجنسية من الكتب أو الروايات التي تتناول الكلام عن الأعمال التناسلية الوضيعة فان تلك المصادر ضارة جداً في هذا الصدد.

وأخيراً أبدى هذه الملاحظة : فقد دلني الاختبار على أن التعامل مع المرضى مباشرة أسهل من التعاون مع ذويهم. ولذلك نرى لزاماً أن ننصح الآباء بان يتركوا القسوة والتهديد والتنبؤ الكاذب بضعف الصحة نتيجة للعادة ـ فان هذه الوسائل من شأنها ن تترك في المريض شعوراً بصغر النفس ، وتبرماً ، وضيقاً وكآبة ، ويسعى معظم الوالدين لايقاف العادة في أطفالهم متأثرين بما كابدوه هم انفسهم من تأنيب الضمير في صغرهم

فاذا شاء الآباء أن يعينوا أولادهم في تجنب هذه العادة والاقلاع عنها ، عليهم ان ينمو فيهم ضبط النفس والشخصية الكاملة والحياة التناسلية الصحيحة وليذكروا أن الفارق بين العادة وبين العلاقات التناسلية العادية ، كالفرق بين الطفل في مرحلة التخيلات وبين الشاب في جو الحقائق .

واذا ظل الآباء يجهلون مشاكل الشباب إزاء العادة السرية فانهم لا يصلحون لمعاونة أولادهم في الابتعاد عنها. كما لا يصلحون لتفهم مخاوفهم وقلقهم وعلة اضطرابهم النفسي مع العلم بان الخوف والقلق هما العارضان اللذان يلازمان معظم المرضى النفسيين ، والعارض الأول ، أي الخوف هو المظهر السلبي للرغبة المكبونة أما القلق فهو عارض ينتج من تعارض هذه الرغبة مع آداب المجتمع والعرف والدين .

والآن أيها القارىء الكريم لم أقصد فى هذا الفصل الختامى سوى تكرار ملاحظات عرضت لنا فى الفصول الماضية . وما اردت من تكرارها الا الاشارة الى أهميتها وخطورتها . كما أننى نبهت فى هذا الفصل الى أهمية العامل التناسلى النفسى ، ولو اننى لم أغفل العامل الجسمانى . لكننى شددت على العامل الأول نظراً لاهماله فى الكتابات القديمة ، أو لعدم بحثه بحثا ناضجا . ومع ذلك فان موضوع العادة السرية لا يزال فى حاجة الى درس واستقصاء طويلين من جانب اولئك الذين يعنيهم أمره ولا سيما اولئك الاخصائيين فى دراسة الأمراض النفسية ، والراغبين فى تخفيف آلام الانسانية . ولئلا تضيع الأمور الهامة من نظر القارىء ألخصها فيما يلى : —

١ـ ان الاستمناء الصبيانى عام عمليا . وهو فى دور المراهقة شائع بين الأولاد والبنات . أما في دور اكتمال الشباب فانه اكثر ذيوعا فى النساء منه فى الرجال.

٢ـ ان الحركات الشهوانية الميكانيكية موجودة ـ فسيولوجيا ـ فى كل الاطفال . لكن وجودها في الفتى البالغ مضر به اذ ينشأ عنها توقف فى نموه التناسلى النفسى .

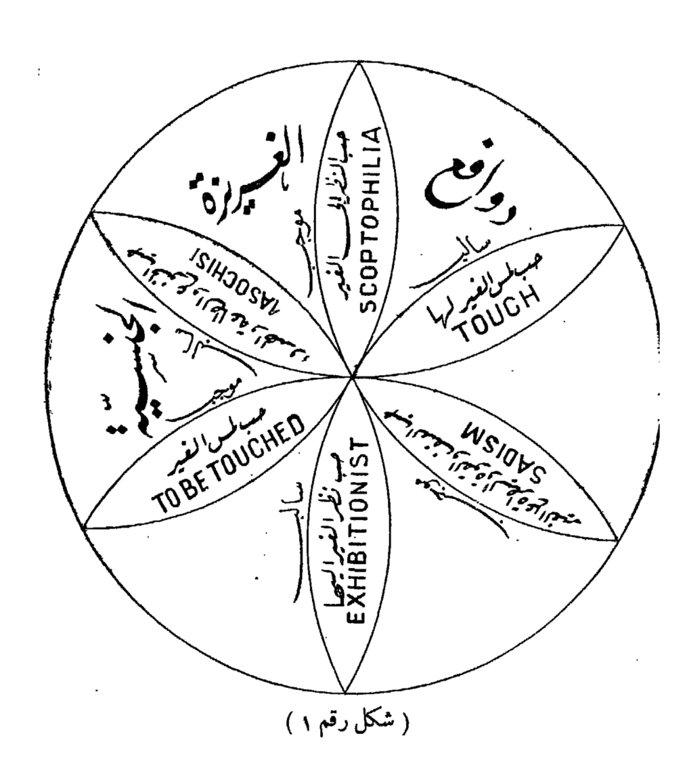
٣ـ أن معظم الضرر الذى ينشأ عن الامعان فى ممارسة العادة السرية يؤثر على الناحية النفسية والادبية اكثر منه فى الناحية الجسدية.

٤ ـ ان علاج « العادة » أمر سهل فى دور البلوغ واكتمال الشباب حيث تكون ميول الفرد واتجاهاته حسنة وجميلة، والرغبه فى الاقلاع عن العادة شديدة ، والدوافع الصالحة كثيرة وفعالة

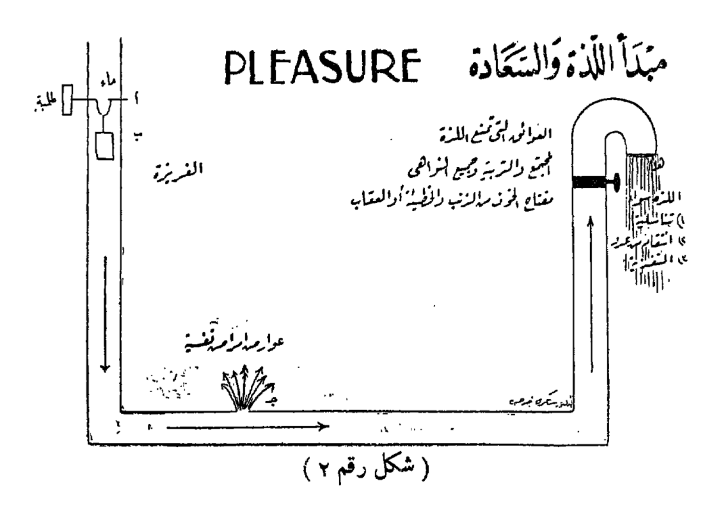
ن ـ أن الرفق والتشجيع هما خير معوان للمريض ، بينما نظرة التحقير أو المعاداة والمراقبة الغير محبوبة، والتهديد ـ عوامل مضرة بصفة عامة

٦ ـ ان هذه المشكلة تدخل فى اختصاص الطب النفسى اكثر من الطب البدنى .

ولقد بذلت جهدى فى هذا الكتاب حتى أقدم للقارىء أحدث الآراء العلمية بخصوص الحياة التناسلية ، وتطوراتها، واختلافاتها ، ومظاهرها ـ والعادة السرية وحركاتها وطرق علاجها ، وراعيت الاختصار جهد الطاقة خيفة الالتجاء الى المعقد من المصطلحات العلمية والطبية التى لا نجد لها (مع الاسف) وضعا صحيحا فى لغتنا العربية . وكل ما أقصده أن أخدم أمتي خدمة صامتة فى علاج الامراض النفسية وفى تربية النشىء ؟


دوافع
الغريزة
الجنسية
SCOPTOPHILIA
TOUCH
حب لمس الغير لها
سالب
موجب
SADISM
EXHIBITIONIST
TO BE TOUCHED
حب لمس الغير
سالب
موجب

(شكل رقم ١)


مبدأ اللذة والسعادة PLEASURE
العوائق التي تمنع اللذة
المجتمع والتربية وجميع النواهي
مفتاح الخوف من الذنب والخطيئة أو العقاب
الغريزة
ماء
طلمبة
عوارض امراض نفسية

(شكل رقم ٢)

شرح الشكلين فى صحيفتي ١٢٣،١٢٤

الشكل رقم١ : —

عبارة عن دوافع (Impulses) الغريزة الجنسية كما تظهر فى عهد الطفولة وتنقسم الى نوعين (١) موجبة و(٢) سالبة

الدوافع الموجبة	الدوافع السالبة
(١) حب الطفل النظر الى كل شيء يتحول عند البلوغ الى حبه النظر الى المرأة	(١) حب الطفل نظر الغير اليه يتحول عند البلوغ الى حب المرأة نظر الرجال اليها فتتزين وتلبس أحسن المودات وتحاول ان تغرى الرجل بكل الاساليب
(٢) حب الطفل لمس كل شيء يتحول فى الكبر الى حب لمس المرأة	(٢) حب الطفل ان الغير يلمسه (يطبطب عليه) يتحول في الكبر حب المرأة لقبلات الرجل الخ
(٣) حب العنف والقوة فى الطفل تتحول فى الكبر الى حب السيطرة والمنافسة	(٣) حب الخنوع والطاعة تتحول الى الخضوع من المرأة للرجل.

الشكل رقم ٢ :ـ

يمثل هذا الرسم مبدأ اللذة والسعادة بشكل طلمبة ماء (عبارة عن الغريزة الجنسية) تدفع الماء (القوة الحيوية فى الجسم) على ان تنصرف فى آخر الماسورة فتعطى تنفيسا . (وهى اللذة) ولكن يعوق خروج الماء صمام (المجتمع والتربية وجميع النواهى) فعلى قدر ضغط هذا الصمام (الكبت) تكون النتائج من ظهور اعراض أمراض عصبية ونفسية

الفهرست

صفحة

المراجع

اهم المراجع بلا شك هى كتب الاستاذ فرويد وخصوصا

1 Three contributions to the Theory of sex.

2. Collected Papers (4 volumes.)

وخصوصا الفصول الخاصة

a. Instincts and their Vicissitudes

b. Repression

c. Introduction to narcissism and masochism

Karl Abraham وكذلك كتاب الاستاذ

3. Cellected Papers

Fenichel الاستاذ

4. Introductional to Clinical PsychoAnalysis

5. Recent Advances in the Study of Psychoneuroses by Millais Culpin. M. D (London), F. R. C. S. (England)

وخصوصا الجزء الخاص بالعاده السريه صحيفة ٧٥ .

6. Internation Journal of Psy cho Analysis. Directed by Sig. Freud.

7. Sexology مجلة امريكانية

8. The Psycho Analytic Method, by Pfister.

9. Modern Treatment of nervous and mental Diseases by White and Jeliffe.

10. Sexual Frigidity in Woman, by Hitschmann.

11. Sexual life of Woman, by kisch.



مطبوعات للمؤلف

الامراض النفسية وعلاقتها بالغريزه الجنسيه ٥ قروش

الغريزه الجنسيه ومتاعبها ٥ قروش

طريقة العلاج بالتحليل النفسى ١٠ قروش

الطب النفسى ١٠ قروش

الثقافة الجنسية ١٠٠ قروش

خلاف اجرة البريد

تطلب من المؤلف بعمارة الشواربى ٢٣

فؤاد الاول تليفون ٥٢٦٦٣

مطبعة الشمس